

منصور بن سرجون التغلبي

يوحنا الدمشقي

خيري الذهبي

منصور بن سرجون التغلبي

المعروف

بالقديس يوحنّا الدِّمشقي

أو الفتح الإسلامي السهل لمدينة دمشق وأسبابه

تأليف

الإكسر خوس جوزف نصر الله

نقله بتصرّف إلى العربيَّة

الأرشمندريت أنطون هبّي

تقديم وإعداد

خيري الذهبي

تصدير الكتاب

يحقّ لبعض المدن أن تفاخر بالبقاء والخلود، لأنها أماكن عصفت فيها الروح، ولأنها مراكز إشعاع عقليّ وروحيّ تركت أثراً خيّراً ومقوّماً لما حولها. قد تكون قد خضعت للقوة، وقد تكون استُعبدت للمادّة، وتفككت أوصالها بشراسة عدوّ وفظاظته، لكن هذه المدن ما تلبث أن تنهض من ركامها، وتخلع عنها نير الظلم والعبوديّة، وتسيطر بقوة العقل والروح على فاتحها وغازيها، لتعلن للملأ بكل تأكيد تلك الشريعة الأبدية، شريعة تفوّق الروح على الجسد والعقل على المادة.

لم تعد عواصم شواطئ النيل والفرات الكبرى سوى أثر بعد عين: بابل، نينوى، سوز، برسيبولس، وهي منسية من زمن طويل، وأمست تلالاً تراكمت فوقها بقايا عصر مضى، فها هي ممفيس حقل للنخيل، وها هي طيبة(*) ركام من دمار رائع. أما القدس الشريف وأثينا وروما فلا تزال تستأثر باهتمام العالم كله باسمها البارز اللامع المجيد، وتذكّر بما لها على الحضارة من أفضال وأولويّة روحيّة وثقافة وعلم وفن.

* * *

دمشق أيضاً حاضرة دائماً حيّة جميلة. يُضاف إلى سحرها الطبيعيّ ذكرى الأمويين. فلا يزال حكمهم مستعذباً وعطراً نادراً فوّاحاً مجلبباً بالفنّ والأناقة. ليس هذا سرّ خلود »هذه الشامة الخضراء على وجه الأرض« فإن بغداد عرفت هي أيضاً أياماً جميلة مجيدة، وقد طبعتها الحضارة العباسيّة بذلك السحر المنبعث من ألف ليلة وليلة، وربطت اسمها بتلك الثقافة ملتقى الشعر والعلوم والفن والترف واللذة. على أن هذه المدينة المسترخية على ضفاف دجلة لا تستطيع البتّة أن تضاهي بقاء المدينة التي يخترقها بردى »مجرى الذهب«. فمنذ ظهور المسيح

(*) **طيبة: عاصمة مصر الفرعونية.**

لشاول على طريق دمشق اقترن اسم دمشق بكلمة طريق، وقفز هذا الاسم إلى عالم الروح وأصبحت عبارة »طريق دمشق« المتعلقة برؤيا القديس بولس رمز الهداية والتوبة. وكأني بتراب الطريق يضيف إلى بياض الشرق الوهّاج شيئاً من استمرار الطريق وأبديّته.

لا يرتبط اسم دمشق بمشهد فقط، مشهد جُنْدِل فيه مضطهِد الأمس تحت تأثير أعمق انجذاب الروح، فتحوّل إلى رسول مندفع، بل يرتبط أيضاً باسم قديس عظيم، بملفان الكنيسة الجامعة يوحنّا الدمشقيّ الذي قال عنه أحد مشاهير كَتَبة حياة القدّيسين في عصرنا، الأب بيترز: »إنه وجه نبيل، لو كان العالم منصفاً لكفى تألّقه وعبقريّته لتمجيد مدينة وبلد«.

احتفل العالم الكاثوليكي، كما احتفلت بطريركيّة أنطاكية بالقديس يوحنا أحد أمجاد البطريركية الملكيّة الأنطاكيّة المبرزين. فأقيمت حفلات فخمة في دمشق مسقط رأسه، وفي القاهرة وبيروت، حيث توافد رؤوساء الدولة والشعب والوجهاء والعامة ورؤساء الطوائف والمؤمنون ليكرّموا هذا الراهب المتواضع صاحب المقام الرفيع في الدولة الأمويّة، وقد فضّل مِسح النسك الخشن على أمجاد بلاط دمشق حفاظاً على إيمانه المسيحي ودينه.

في سنة اليوبيل هذه لا نرى أفضل من أن نخصّص »لمجرى الذهب« - وهو اسم نهر بردى قديماً وقد أطلق على القديس يوحنّا الدمشقيّ ـ هذا الكتاب، جامعين بمحبّة واحدة بولس ويوحنا شاهدَي المسيح وفخر مسيحيّي هذه المدينة التي يحقّ لها أن تفاخر أيضاً بأنها أعطت المسيحيّة قدّيسين وآباء وكتبة كنسيّين عديدين.

في عصرنا هذا، عصر الجبانة والتراخي وقد غَشي تملق الجسد وعبادة المادة فيه القيم العالية الروحيّة، نقدّم يوحنّا الدمشقيّ مثلاً يُحتذى به وشاهداً عرف طيلة حياته مقياس القيَم الحقيقيّ. فليجتذبْ على خطاه الشبيبة التي أحببنا، وليحفظها قويّةً مقدامةً رغم الضعف والسقطات وصعوبات الأيام الحاضرة، فتبقى محبّةً السيد المسيح وأمّه القدّيسة فوق كل شيء.

جوزيف نصر الله

14 أيلول 1950، عيد رفع الصليب

يوحنا الدمشقي

خيري الذهبي

قليلة هي الأسماء التي التصقت بها دمشق، فما عدا المهندس العظيم أبو لودور الدمشقي صاحب عمود تراجان الشهير، وما عدا مؤرخ دمشق الكبير ابن عساكر وما عدا الشاعر الوأواء الدمشقي. هناك أيضاً وربما أولاً القديس يوحنا الدمشقي أو سرجون بن منصور بن سرجون المنسوب إلى قبيلة تغلب العربية على الأرجح، وما عدا تلك الأسماء العظيمة، فالتاريخ لم يحتفظ بأسماء كثيرة حملت اسم الدمشقي، وربما كان سرجون هذا الذي اشتهر بالتاريخ الديني، والتاريخ الكنسي، باسم يوحنا الدمشقي هو الاسم الأكثر شهرة عالمية لغير المختصين.

استطاع قديسنا ورجل الدولة الكبير هذا أعني يوحنا أن يعبر الحدود واللغات والمذاهب المسيحية على شدة ما كان بينها من عنف، واستطاع أن يجعل اسمه واحداً من أهم أسماء المعلمين، والمنشدين والمفكرين الدينيين في المسيحيّة قبل انقسامها إلى الكنيستين الأكبر، الأرثوذكسية والكاثوليكية، ثم فيما بعد إلى البروتستانتية وظلت أناشيده وتهليلاته وقصائده الدينية تتداول في الكنائس بلغات عدة باليونانية، وباللاتينية، وبالعربية فيما بعد.

ولكن لماذا يوحنا الدمشقي الآن، ولماذا نذكره بعد أربعة عشر قرناً وفي أيام الاحتفال الكبير بدمشق عاصمة ثقافية للعرب.

دمشق التي حظيت لأقل من مئة عام بكونها العاصمة السياسية للعالم الإسلامي كله، ثم كأن التاريخ ندم على إعطائها هذا الدور، فدفعها إلى الصفوف الخلفية بعد قيام الدولة العباسية لأكثر من ثلاثة عشر قرناً، وها هي الفرصة تلوح من جديد.. فها هي دمشق عاصمة للعرب، ولكن العاصمة الثقافية.

قارئ التاريخ الإسلامي المبكر يقع في مأزق، فما عدا أن من كتب تاريخ القرن الأول للهجرة وبتحديد أكبر تاريخ العصر الأموي هم أعداء الأمويين السياسيون الذين جاؤوا بعدهم، وقارئ التاريخ الإسلامي سيصاب بصدمة إذ لن يعثر على نص تاريخي واحد عن الفترة الأموية مكتوب في الفترة الأموية، فمروج الذهب للمسعودي كتب في الفترة العباسية أي بعد أكثر من قرنين على انقضاء ذلك التاريخ، والطبري والواقدي والبلاذري.. أعوذ بالله هل يمكن أن يكون تاريخ الفترة الأزهى في التاريخ الإسلامي، وأعني فترة الفتوحات الكبرى و.. تاريخ الحرب الأهلية الأولى في التاريخ الإسلامي أي الصراع ما بين أنصار علي وأنصار معاوية، أن يكون هذا التاريخ قد كتب بعد قرن أو أكثر من حدوثه، ومستخلَصاً من ذواكر الباقين على قيد الحياة.. وبيد أعداء تلك الفترة بغض النظر عن محاولاتهم النزاهة والحياد ففي المسائل السياسية والعقيدية من الصعب النزاهة والحياد.

إذاً فتلك الفترة أعني الأموية هي فترة فراغ معرفي ليس هذا فحسب، بل هناك فراغات أخرى لم تغطَّ أبداً: ما هو دور القبائل العربية الكثيرة في بلاد الشام، قضاعة وبطونها، كلب، وبكر وتغلب، وغسان بتلوناتها. ما هو دور أولئك الناس في الحرب، أو تسهيل الفتح للمسلمين الحجازيين.

و.. ما هو دور البيروقراطية الإدارية الشامية العريقة في المدينية وقيام الدولة، وجباية الضرائب، وبناء الجسور، والإنفاق على الجيوش في تعليم المسلمين الحجازيين على الدور الجديد الذي أوكله لهم القدر حينما أسقطوا الدولة الفارسية العجوز نهائياً. وزلزلوا الدولة البيزنطية وكادوا يسقطونها نهائياً لولا الحرب الأهلية التي امتصت اندفاعهم إلى الداخل.

ما هو دور البيروقراطية الشامية المسيحية في كل هذا؟

ما معنى كلمة الجند الشامي المطيع والذي تحسَّر عليه علي بن أبي طالب وتمنى لو يستبدل كل عشرة من جند الكوفة والبصرة بواحد منهم. وما الذي ميّز جند الشام هؤلاء حتى جعلهم ينتصرون على جند الإمام علي رضي الله عنه رغم تعلّق جند الإمام علي وإيمانهم بقضيته أكثر من تعلّق جند معاوية به، ثم يكمل هؤلاء الجند رحلة الاندفاع الإسلامية الأموية فيصلون أيام الحجاج إلى حدود الصين، وأيام أبناء عبد الملك إلى حدود فرنسة.

فمن هم هؤلاء الجند الشاميون، وما سر قوتهم واندفاعتهم لبناء إمبراطورية ستعيش

حضارياً لأكثر من أربعة عشر قرناً وإن تلاشى تماسكها السياسي والعسكري وبقي إشعاعها الحضاري والثقافي في انتشار الدين الإسلامي واللغة العربية في تلك الإمبراطورية.

أسئلة كثيرة سيجيب عنها هذا الكتاب، وسأقدم في مقدمتي هذه بعض الإلماحات إليها.

في البدء.. جاء العرب المسلمون بقيادة يزيد بن أبي سفيان وانتصروا على البيزنطيين في معركة أجنادين عام 634م. وارتد البيزنطيون مندحرين نحو دمشق ثم رأى سرجيوس قائد البيزنطيين المهزوم أن ينسحب إلى حمص فأنطاكية لينطلق المسلمون يطاردونه ولكن البيزنطيين يوقعون بالمسلمين هزيمة ما قرب حمص عام 635 ويعود المسلمون إلى دمشق يحاصرونها، وعندئذ تقتنع النخب في دمشق أن بيزنطة قد انتهت كما انتهت فارس على يد هؤلاء الحجازيين، فرأوا أن يفاوضوهم على تسليم دمشق، ولما كان الحجازيون المسلمون حديثي عهد في حصار المدن وآليات الحصار، وكانوا خائفين من رجعة البيزنطيين معززين بجيوش جديدة، فهيبة الروم ما تزال قوية فقد رضوا بشروط الدمشقيين التي وضعتها النخبة الدمشقية لصالح المدينة لا لصالح الفاتحين ووافق المسلمون، واستسلمت المدينة استسلامها الأول.

ولكن.. من كان رأس النخبة الدمشقية، ومن كان المفاوض بالنيابة عن المدينة.. إنه منصور بن سرجون جد الرجل الذي سيكون كتابنا عنه وأعني منصور بن سرجون بن منصور المفاوض على تسليم دمشق و.. مدير المالية العام لولاية فينيقية الغنية والتي كانت دمشق أهم مدنها.

منصور بن سرجون ناظر المالية والمفاوض على تسليم دمشق.. من هو، وإلى أي الأعراق ينتمي. الحق.. ليس لدينا نص صريح على نسبه، ولكن كل الإشارات تدل على أنه من أصل تغلبي، تلك القبيلة التي سنعرف منها فيما بعد الشاعر الكبير الأخطل التغلبي، ولكن ما الذي يرجح كون منصور هذا من تغلب.

قبل كل شيء، علينا أن نذكر أن القبيلة الأكبر، أو تحالف القبائل الأكبر المنتشر في بلاد الشام كان لقضاعة التي جمعت بين أبنائها أفخاذاً متحضرة، وأفخاذاً رحالة بدوية، ومن أهم أفخاذ هذا التحالف الكبير كانت قبيلة كلب التي استوطنت في القلمون قرب دمشق، والتي ألَّف أبناؤها معظم سكان المزة المتاخمة للمدينة والتي عرفت لزمن طويل باسم (مزة كلب) والتي

اعتنقت المسيحية ديناً في مرحلة مبكرة جداً.

هذا التحالف من القبائل (قضاعة) كانوا يعتبرون القديس سرجيوس شفيعهم وكانوا يستخدمون هذا الاسم بصيغة سرجيس وأحياناً سركيس، وأحياناً بصيغة التصغير سرجون أو سرجه وعلينا ألا ننسى أن اسم رصافة هشام القريبة من الرقة حالياً كان اسمها سرجيوبوليس أو مدينة القديس سرجيوس، وعلينا ألا ننسى أن التغالبة كانوا يحملون على راياتهم صورة القديس سرجيوس. ولنذكر قصيدة الأخطل التغلبي:

لما رأونا والصليب طالعاً ومارسرجيس وموتاً ناقعاً

ورد جرير عليه:

يستنصرون بمار سرجس وابنه بعد الصليب وما لهم من ناصر

ما يهمنا من هذا كله أن رجلنا منصور بن سرجون الجد كان على الأغلب تغلبياً وقطعاً لم يكن يونانياً، ولا لاتينياً.

ولكن.. ما الذي يجعل رجلاً مثقفاً وبيروقراطياً كبيراً (مديراً لمالية الولاية كلها) يقرر تغيير ولائه من بيزنطة إلى هؤلاء البدو القادمين من الحجاز.

كانت آرام أو بلاد الشام بصيغة اسمها العربية تعاني دائماً من وفرة في الثقافة والحضارة، ونقص مريع في القدرة على إنشاء دولة مركزية كما حصل في بلاد الرافدين وبلاد النيل، وكانت آرام ممزقة بين آرام دمشق، وآرام حماه، وآرام صوبا، ويمحاض.. إلخ. حتى جاء الفرس فداسوا على رقابهم ببسطارهم الفاحش واستعبدوهم كما استعبدوا سكان الشرق حتى جاء الاسكندر المقدوني والذي يعتبر (بييرروسي) صاحب كتاب (مدينة إيزيس أو التاريخ الأصلي للعرب) فيه أن حرب الاسكندر لم تكن غزوة خارجية، بل كانت انقلاباً داخلياً ضمن الثقافة الآرامية نفسها، تلك الثقافة التي كانت سيدة في فارس ومقدونيا واليونان، وهذا ما يفسر سهولة اندفاع الاسكندر من مقدونيا وحتى الهند، فالشعوب الخاضعة للإمبراطورية الفارسية لم يقاوموا. ولم يقاومون؟ أللدفاع عن الطاغية داريوس؟

دخل الاسكندر محرراً ومعه فلسفة أرسطو ورسائله، فمجَّده التاريخ الشرقي، فهو من أبعد

البرابرة عن عواصم الحضارة، ترى هل كان من أقام السد ضد يأجوج ومأجوج هو الاسكندر، ومن يأجوج ومأجوج أصلاً؟ أهم بداة آسيا الوسطى الذين أدمنوا مهاجمة عواصم الحضارة ودمارها وأكل الأخضر واليابس؟ ترى.. هل مجَّد الإسلام الاسكندر في تمجيده ذي القرنين، مجَّده حتى قارب به النبوة.. ولنذكر أن القرآن يحدث عن الرسل (غير المعروفين)، فيقول: ورسلاً قد قصصناهم عليك من قبل (النساء) ورسلاً لم نقصصهم عليك (النساء) فهل كان ذو القرنين الاسكندر واحداً منهم؟ الله أعلم! ولكن ما نعلم هو أن ذكرى المقدوني كانت ذكرى محترمة جداً حتى أن التاريخ ظلَّ لأكثر من ألف عام يؤرخ بوفاة الاسكندر.

عاش الشاميون فترة زاهية خلت من بطش يأجوج ومأجوج، ومن استعباد الفرس لهم حتى جاء البسطار اللاتيني فسحق تلك المرحلة الزاهية، ولكن الشاميين استطاعوا اختراق البسطار اللاتيني حين أرسلوا بعدد من الشاميين أباطرة على روما، وحصلوا على حق المواطنة الرومانية في تحالف الديكابوليس الشهير، وفي المشاركة الفاعلة في الحضارة الرومانية بمهندسيهم أبولودور الدمشقي وشعرائهم وكتابهم. لوقا السميساطي وميلياغروس من جادارا.. إلخ.

ولكن الحلم بدولة مركزية شامية لم يفارقهم، وهكذا حاولت زينب ـ زنوبيا الحلم في تدمر، وجاءت روما بكل آلتها العسكرية فمزَّقت تدمر وحلمها، ثم جاء الأنباط في سالع ومدائن صالح وصنعوا ما يشبه الإمبراطورية إلى أن أحس البسطار اللاتيني بالخطر، فمزقهم شر ممزق، بل حاول حتى اليهود الثورة في ما سمي بثورة الماكابيين ولكن العقوبة كانت في تدمير أورشليم وتحريمها عليهم. وكانت المسيحية (الدين الشامي) ألم أقل إن آرام كانت أقدر على الثقافة والحضارة منها على تشكيل الدولة المركزية، أفلم تستطع آرام نشر لغتها الآرامية في العالم المتحضر كله دون عون من جيش (كبريطانيا) أو تكنولوجيا إعلامية شديدة التطور (كأمريكا) المعاصرة مثلاً.

وكانت المسيحية.. ثم كان المجمع الخلقيدوني الذي حرَّم وكفَّر الفرق المسيحية المخالفة للمجمع الخلقيدوني وهكذا كُفِّر وحُرِّم اليعاقبة في مصر والشام (أتباع يعقوب البرادعي الشامي) وحرم الأريوسية والمرقيونية والنسطورية.. إلخ، وبدأ العذاب والاضطهاد الديني وجاءت الحروب الفارسية البيزنطية وكانت دمشق أولاً، ثم الشام تالياً الضحية.

واحتل الفرس الساسانيون الشام وسمعت قريش والحجاز بهذه الهزيمة فشمتوا بالرسول

الكريم. أفليس المهزومون أهل كتاب كما هو الإسلام، وسعدوا لانتصار الوثنيين الفرس على أهل الكتاب الروم، فنزلت الآية القرآنية (غلبت الروم في أدنى الأرض وهم من بعد غلبهم سيغلبون في بضع سنين) وهذا ما كان، فلقد استرجع البيزنطيون الشام، ولكن الضحية كانت دائماً هي الشام، جيوش تأتي فتحرق وتنهب وتغصب، وجيوش تمضي فتحرق وتنهب وتغصب.

عاد الروم، وكان منصور بن سرجون مدير المالية قد دفع الخراج كاملاً للفرس مئة ألف دينار، ولما وصل الروم طالبوه بدفع الخراج نفسه، فلما اعتذر بأنه قد دفعه لأسياد البلد السابقين الفرس رفضوا وأصروا على أن يدفع الخراج الجديد مئة ألف دينار، ودفعها منصور بن سرجون، وحملها في قلبه غضباً وألماً للظلم المزدوج.

و.. جاء الحجازيون واستيقظ الحلم الشامي في دولة عربية لا يحكمها فارسي ولا رومي.. ترى. أكان هذا هو الدافع الداخلي لمنصور بن سرجون في نقل ولائه من بيزنطي غريب وإن اتفق معه في الدين إلى ابن عم عربي وإن اختلف معه في الدين.

سنرى الموقف نفسه يتكرر بعد حوالي أربعة عشر قرناً حين نقل الشاميون ولاءهم من حكام القسطنطينية بيزنطة سابقاً استنانبول حالياً رغم اتفاقهم معهم في الدين إلى حجازي اسمه فيصل بن الحسين.. أعرف أن هناك اختلافات في التشبيه، ولكن ما يهم هو الحلم الشامي في إقامة دولة خاصة بهم لا يكون ولاؤها لبرسيبوليس الفارسية ولا للقسطنطينية الرومية.

وما يقوي اعتقادنا في أن منصور بن سرجون الجد حين سلَّم دمشق للحجازيين المسلمين أول مرة كان يعرف ما يفعل وعن سبق تصميم بدليل أنه عند معركة اليعقوصة كما يسميها مؤلف الكتاب، أو الواقوصة، أو معركة اليرموك حين أمره باهان باسم الإمبراطور هرقل أن يدفع رواتب الجند البيزنطيين الذين سارعوا لنجدة دمشق بعد أن تخلى الحجازيون عنها وأعادوا الجزية والغرامة الحربية لأهلها حين عجزوا عن حمايتها مؤجلين الأمر إلى ما بعد المعركة الفاصلة والتي ستكون في اليرموك.

حين طلب القائد البيزنطي باهان من منصور أن يدفع رواتب الجند وكان قد دفع الخراج مرتين، مرة للفرس، ومرة للروم فأجاب منصور بأنه لم يعد يملك ما يكفي من المال، وكان ينتوي على الأغلب أن يصنع ثورة في المدينة ضد بقايا الحامية البيزنطية ويعيد تسليمها للعرب، واضطر باهان أن يتابع مسيرته إلى اليرموك دون مال، وضرب معسكره على وادي

الرقاد أو يعقوصا ومضت أيام والجيشان متهيبان البدء بالحرب، وأخيراً خرج منصور من دمشق يحمل المال الذي جمعه من المدينة كما أعلن ليقدمه لباهان.

اقترب منصور ومعه جمع كبير من أهالي دمشق وكان الوقت ليلاً، اقتربوا يحملون المشاعل وفجأة أمر منصور من معه بقرع الطبول ونفخ الأبواق وإطلاق الصرخات.. أكان هذا فعلاً بريئاً يريد أن يبلغ باهان بوصوله، أم أنه كان يريد لما حصل أن يحصل.. .. البيزنطيون حين رأوا المشاعل، وسمعوا الطبول والأبواق ظنوا أن مدداً للجيش العربي قد وصل وأن الخطة تقضي بكبسهم من الوراء والأمام، فذعروا، ورموا بأنفسهم في وادي الرقاد، فهلكوا وحسمت المعركة بين المسلمين والروم.

هذا الموقف والذي يذكره ابن البطريق ويذكره ابن العميد ألا يفسر لنا ضيق الشاميين بالحكم البيزنطي البغيض والذي لم يتبق من فضائله بعد هزائمه الكثيرة أمام الفرس، واضطهاده المقيت للفرق المسيحية التي لم تقبل بقانون الإيمان الخلقيدوني. لم يتبق منه إلا الجابي القاسي والطماع الذي لا يفكر في إبقاء بعض الحليب للعجل بعد ابتزاز البقرة حتى النقطة الأخيرة.

هذا الموقف الذي اتخذه منصور بن سرجون التغلبي العربي.. ربما يفسر الكثير فيما بعد. يفسر اعتماد الحكم الأموي عليه وعلى جهازه البيروقراطي في إدارة بلاد لا خبرة للحجازيين بإدارتها، ويفسر تدلله ودالته وابنه وحفيده فيما بعد على الخلفاء الأمويين. فهم ليسوا من سلَّم البلد فقط، بل هم من درَّبوا الحكام الجدد على فن إدارة البلاد، وأشرفوا على تدريب الجند من البدو المتطوعين على فن إدارة الحرب وعلى إقامة الكراديس على الطريقة الرومانية، وعلى حسن التدريب والطاعة اللتين تنتصران دائماً على الشجاعة الفردية الأمر الذي يفسر مقولة علي فيما بعد عن طاعة الجند الشامي، فالطاعة هي بنت التدريب والاحتراف.

فيما بعد وحين سنتابع منصور الحفيد صديق ونديم يزيد بن معاوية وصديق الأخطل ونخبة المثقفين الشاميين في البلاط الأموي سنتابع أيضاً طرائق التعليم الجديدة التي أدخلها الشاميون المسيحيون إلى البلاط الأموي، الفلسفة والمنطق والجدل، وسنتابع أيضاً نقل الجدل اللاهوتي إلى الإسلام، وقيام غيلان الدمشقي والقدريّين إلى آخر ما سنقرأه في هذا الكتاب.

يوحنا الدمشقي أو منصور بن سرجون وبعد أن يتخلّى عن العمل لدى عبد الملك ويترهبن في دير مار سابا قرب بيت المقدس سيدخل مرحلة جديدة من دراسة اللاهوت وفي الكتابة في

علم اللاهوت الأمر الذي سيجعل المؤرخين يكتبون عنه فيما بعد: لم يكن تأثير يوحنا الدمشقي على معاصريه ولا على من تلاهم فقط، بل كان كتابه (ينبوع المعرفة) مصدراً معرفياً أساسياً للمفكر المسيحي الكبير توما الأكويني، ثم يضيف: والأمل أن يأتي اليوم الذي تضع فيه الكنيسة (الكاثوليكية في روما طبعاً) كتاب ينبوع المعرفة للدمشقي إلى جانب موسوعة توما الأكويني اللاهوتية خدمة للوحدة بين الشرق والغرب.

والآن. ما الذي تبقى من الأمويين ومن يوحنا الدمشقي؟

إن زائر الجامع الأموي **الآن** حين يصل إلى ضريح النبي يحيى، فيرى الموحدين الدروز وهم يقدمون نذورهم وأدعيتهم إلى النبي يحيى، ويرى إلى جانبهم المسلمين السنة، يقدمون نذورهم وأدعيتهم إلى النبي يحيى، وإلى جانب هؤلاء وأولئك يرى مسيحيّي العالم بكل طوائفهم يقدمون نذورهم وأدعيتهم ليوحنا المعمدان الاسم الآخر للنبي يحيى، فيدهش لهذا التعايش. ولكن الزائر حين يترك المصلى ويخرج إلى الباحة ليرى المسلمين الشيعة الاثني عشرية وهم يزورون ويقدسون مشهد رأس الحسين عليه السلام. لن يدهش فقط بل سيذهل.. فهذا الجامع الذي يجمع المذاهب والأديان في معبد واحد ظاهرة لا مثيل لها في العالم كله، فلن تجدها في معبد مسيحي آخر، ولا معبد مسلم آخر..

ظاهرة التعايش والتسامح هذه في الجامع الأموي هي التراث الذي تركه لنا الأمويون و.. منصور بن سرجون أو يوحنا الدمشقي إنه التراث الذي علينا أن نحفظه فهو ما أبقى دمشق على التاريخ، وعلى المحبة.. وعلى التعايش. هذا التراث هو المبرر الأكبر لنشر هذا الكتاب في سنة احتفالية دمشق عاصمة ثقافية.

وشكرنا العميق لمؤلف الكتاب الأكسرخوس جوزف نصر الله، ولمترجم الكتاب الأرشمندريت أنطون هبي، وللصديق الدكتور جمال شحيد الذي نبهنا وأعارنا هذا الكتاب.

خيري الذهبي

الفصل الأول

المُحيط التّاريخي الذي عاش فيه يُوحَنّا الدِّمشقي

اجتاحت الجيوش العربيّة تحت إمرة يزيد بن أبي سفيان بلاد فلسطين سنة 634، والتقت في 4 شباط في داثينا بجيوش جمعها بسرعة سرجيوس شقيق هرقل. فانهزم البيزنطيون، وعاث المنتصرون في البلاد فساداً وخراباً[1]. ثم استعدَّ الخصمان مدة أشهر لاستئناف الحرب، واستعان قواد الطرفين بإمدادات جديدة. فتألف على عجل جيش بيزنطيّ، وأسرع إلى حوران للدفاع عن طريق الشمال. وجاءت من العراق مفارز عربيّة تحت إمرة خالد بن الوليد وأبي عبيدة، فاجتازت الصحراء وانضمّت إلى جيوش يزيد. وكان المسلمون أسياد سورية الجنوبية. فنزحوا نحو الشمال بعد أن تجمعوا، والتحموا مع البيزنطيّين في أجنادين (30 تموز 634). فكان للعرب نصر مبين، وارتدّ المندحرون نحو دمشق. وارتأى سرجيوس قائد الجيش المنهزم أن يتجه بسرعة نحو حمص فأنطاكية.

انطلقت جماعة من الخيّالة العرب في إثر الفارّين، واندفع فريق منهم على طول منحدرات جبال لبنان الشرقيّة حتى حمص. وفي ربيع سنة 635 أنزل البيزنطيون بعض الضرر بفيلق عربي قرب الغوطة، على أن هذا لم يحسّن أوضاعهم. وفي شهر آذار أحاطت القوات الإسلامية بدمشق. فاستسلمت المدينة في أيلول من السنة عينها. وقبل احتلالها بأسبوع أو أسبوعين انسحبت الجيوش الإمبراطورية من مواقعها تاركة الدمشقيّين يتدبّرون شؤونهم. فعزموا على التفاوض، وحصلوا على استسلام شريف من أولئك البدو الرحّل المرهقين من طول الحصار، وأملوا عليهم شروطهم، وقد قبلوا أن يدفعوا ضريبة الحرب.

وكان المفاوض في تسليم المدينة منصور بن سرجون جدّ يوحنا الدمشقي. وها هي المرة الأولى التي يظهر فيها اسم منصور في تاريخ المدينة. لقد قام منذ سنين طويلة بوظيفة ناظر الماليّة العام المهمّة لولاية فينيقية الغنية، وكانت دمشق أهم مدنها.

---

[1] هذا هو رأي المؤلف الذي لا نوافقه عليه.

مدينة دمشق

كانت دمشق مدينة مزدهرة تتعاطى التجارة والصناعة وفي اتصال دائم مع آسيا الوسطى. وقد أقام فيها الإمبراطور ديوكلسيانس مصنعاً ومخزناً للسلاح. وكانت أقمشتها الحريريّة ومصنوعاتها الزجاجيّة ذائعة الصيت. وما زالت في عهد يوليانوس الجاحد أجمل مدينة في الشرق. وقد احتفظت بأهميتها في أيام الحكم البيزنطيّ. ويعود هذا خصوصاً إلى موقعها الممتاز المتقدّم باتجاه الصحراء.

أما تخطيط المدينة الإجماليّ إبان العهد الإمبراطوريّ فيعود الفضل العميم في إظهاره نهائياً لجهود المأسوف عليه ج. سوفاجيه. أما التعديلات التي حصلت بين العهد الإمبراطوريّ الرومانيّ والفتح العربيّ فلا الوثائق الأثريّة ولا المصادر الأدبيّة تنبئنا عنها. ومع ذلك فإن »بعض الأدلة تحملنا على الاعتقاد أن المدينة القديمة لبثت بدون تعديل حتى ظهور الإسلام«. ويبدو أنها كانت على شكل مستطيل، طوله 1550 متراً وعرضه 850، يمتدّ على ضفاف بردى ويطوّقه سور. »جعلت مجاراته للنهر تخطيط جانبه الشماليّ متعرّجاً. أما على جوانب السور الأخرى فتمتدّ مستقيمة تماماً. وللمدينة سبعة أبواب على الأقل، حلَّت مكانها تقريباً أبواب القرون الوسطى، ويتصل بعضها ببعض إثنين اثنين، بطرق واسعة تزيّن جوانبها أعمدة. وكان الشارع الرئيسي، »الزقاق القويم« الذي أتى على ذكره سفر أعمال الرسل (9: 11)، يخترق المدينة كلّها من الباب الشرقي (باب شرقي) حتى الباب الغربي (باب الجابية)، يقابله اليوم الشارع السلطاني وسوق مدحت باشا، عرضه الإجمالي 26 متراً، وتشير أبواب كبيرة على الأرجح إلى ملتقى هذه الشوارع. أمّا الطرقات الثانوية فمن الصعب تخطيط شبكتها بدقة«.

وتزوِّد المدينة بماء الشرب قناة تلجها من الباب الغربي. وتزدحم المباني العامة والساحة العموميّة والأوديون والمسرح في بعض الظروف بجمهور الشعب. وكانت كاتدرائية القديس يوحنا المعمدان مبنى المدينة الرئيسيّ وقد حلّت في عهد الإمبراطور تيودوسيوس مكان »هيكل جوبتر الدمشقيّ والكبير جدّاً«. وتقوم بخدمة أحياء المدينة المحصّنة كنائس كثيرة، وقد حفظ لنا ابن عساكر أسماء 35 إلى 40 منها، ما عدا الكنائس التي قامت في الضواحي خارج الأسوار، وأكثرهايخصّ الملكيّين. وكان لليعاقبة واحدة على الأقل، حفظ ذكرها حافظ دمشق[2]، فأسماها كنيسة اليعاقبة، وقد عاقب كاهنُها الشاعر الأخطل بالسجن في إحدى الغرف الملاصقة لهذه

---

[2] ابن عساكر.

الكنيسة جزاء لبذاءة لسانه في إحدى قصائده.

أما متروبوليت[3] دمشق الملكيّ فيأتي حالاً بعد البطريرك في سلسلة السلطات البطريركيّة الأنطاكية، ويخضع له أحد عشر أسقفاً. ولليعاقبة[4] أيضاً كرسي أسقفيّ في المدينة.

في العصر الرومانيّ انتشرت بيوت ترفيه عن النفس خارج الأسوار، باتجاه الباب الشمالي المكرّس لإله التجارة هرمس. وقد دعي في ما بعد على عهد البيزنطيّين باب الفراديس. واصطفّت أديرة على سفوح جبل قاسيون المشرف على دمشق، جهة الشمال، وعلى تلاله الممتدّة نحو الشرق، وفي السهول المنبسطة شرقيّ المدينة.

سكان دمشق

يؤلف الآراميون عنصر السكان الأساسي في مدينة دمشق، وقد تهلين هؤلاء الآراميين زمن احتلال السلجوقيّين لدمشق[5]، ولا سيما إبّان السيطرة الرومانيّة، فتطبعوا بطابع الحضارة اليونانيّة وثقافتها. وانضمّ إلى هذا الأساس الآرامي المتهلّين جالية يونانيّة: من جنود ومدراء وتجار استقرّوا في المدينة بسبب أعمالهم أو اجتذبوا بجمالها ومناخها. وتسرّب إليها بعض العرب منذ احتلال الأنباط لها، وقد ساعد على دخول العنصر العربي فيها موقعها على مقربة من البادية ووضعها كمركز تجاريّ ونقطة توقّف القوافل التي تذرع الصحراء.

إن سيطرة الغساسنة على المنطقة وإقامة قبائل كثيرة في المرج أو على الهضاب المجاورة زادت في هذا العنصر العربيّ. فاندمج مع العنصر السائد وأخذ ثقافته وحضارته.

لقد عانت دمشق الكثير من جراء النزاع البيزنطيّ – الفارسي، نظراً إلى موقعها في الخط الأول وتعرّضها للغزوات الشرقيّة. فقد احتلها الساسانيّون سنة 613 في أيام هرقل، وأخذوا عدداً كبيراً من سكانها عبيداً إلى بلاد فارس. على أن انتصارات الإمبراطور البيزنطيّ أعادت الثقة إلى قلوب السكان واسترجعت المدينة التجاريّة نشاطها المعتاد.

---

[3] مطران.

[4] السريان القدماء كما يحبون أن يدعوا.

[5] الأصح السلوقيين نسبة إلى قائد الاسكندر سلوقيوس الذي كانت بلاد الشام حصته من تركة الاسكندر.

أقسام كونتيّة الشرق

منذ إصلاح أركاديوس الإداري، أصبحت سورية تابعة لمحافظة الشرق، وعلى الأخص لكونتيّة الشرق التي تضمّ خمسة عشر إقليماً: فلسطين الأولى، فينيقية البحريّة أو الساحليّة وحاضرتها صور، سورية الأولى أو الجوفاء وحاضرتها أنطاكية، كيليكيا، قبرص، فلسطين الثانية، فلسطين السعيدة، أسروانه، فينيقية وحاضرتها حمص أولاً ثم دمشق، سورية الفراتيّة وحاضرتها هييرابوليس أي منبج، سورية السعيدة، ما بين النهرين، كيليكيا الثانية، إصورية، العربيّة. وكانت دمشق أهمّ مدن فينيقية اللبنانية. وكان تحت إمرة كونت الشرق قناصل مقيمون في أنطاكية وصور وقيصرية، ورؤساء في أفامية ومنبج ودمشق. أما العربيّة فكانت تابعة استثنائياً لدوق. وقام في عهد يوستنيانس دوق في دمشق، له دور محدّد في خط الدفاع عن المملكة.

إصلاحات يوستنيانس

يحتلّ حكم يوستنيانس الطويل (527 – 565) مقاماً في تاريخ المملكة الإداريّ. فقد أجرى هذا العاهل إصلاحات مهمة في المقاطعات »لا سيَّما مقاطعات الشرق. فكانت آسيا الصغرى وسوريا ومصر في منتهى الفوضى لدى اعتلائه العرش: رشوة الموظفين، عادة سلب الدولة المتأصلة، جشع كبار الملاّكين، ابتزاز الجباة. لقد تحملت المقاطعات كلَّ هذه المصائب معاً. فنتج عن ذلك إخلاء المدن من السكان والهرب من المناطق الريفيّة وإهمال الزراعة«. وقد ظنّ يوستنيانس أن فصل السلطات في الإدارة أمر طبيعيّ، إلاّ أنه اضطر إلى أن يعدل عن فكرته هذه في بعض المقاطعات الصعبة المراس والحكم، إذ قادت المنافسة بين الحاكم المدنيّ والدوق العسكريّ إلى اضطرابات متواصلة. وجنح القوّاد العسكريّون في القرن الخامس إلى اغتصاب وظائف القضاة المدنيّين. فعمد يوستنيانس إلى إنشاء حاكم فرد في بعض المقاطعات يتمتع بصلاحيّات السلطة المدنيّة والعسكريّة، بغية استئصال علّة هذه المنافسات. وهذا ما حصل لسورية الأولى وفينيقية اللبنانية. فعيّن في دمشق سنة 540 حاكماً يتمتّع بالسلطتين المدنيّة والعسكريّة.

التنظيم الماليّ

أما تنظيم الإدارة الماليّة البيزنطيّة فيرتكز في الأساس على إصلاح ديوكلسيانس الماليّ: الضريبة العقاريّة على الأرض الصالحة للحراثة والزراعة والمقسّمة إلى وحدات ضرائبية تحدّد قيمتها لخمس عشرة سنة، وتتضمّن رسماً نقدياً وضريبة على الفرد عينيّة (خراج الأعناق أو جزية الرقبة) مفروضة على المقاطعات كلّها. إن أثقل الضرائب الشخصيّة حملاً كانت الضريبة على أرباح التجار، يحصّلها الجباة بفظاظة وخشونة، وقد ألغاها أنسطاسيوس الأول وأحلّ مكانها ضريبة أخرى أثقلت أيضاً كاهل المدن والأرياف فكانت تجمع من الفلاحين بشكل رسم نقديّ بدلاً من الضريبة العينيّة على الفرد. لم يسنّ يوستنيانس ضرائب جديدة بالمعنى الدقيق بل وجد سبيلاً لزيادة أعباء إضافيّة على الضرائب القائمة، على نحو مبالغ إضافية توازي الضريبة، مخصّصة لتغذية صندوق المصالح العامة (الأشغال، رواتب الموظّفين..).

يعمّم حاكم ولاية الشرق سنويّاً على المقاطعات مبلغ الضريبة قبل 21 أيلول، وتعلّق تفاصيل الترتيبات لمدة الخمس عشرة سنة المقبلة (الإنذكتي) في ميدان كل أبرشيّة، وعلى جباة الضرائب أن يُطلعوا المكلّفين على التزاماتهم. وتقوم السلطة المحليّة بعمليّة توزيع الضريبة على الدوائر والملاّكين. أمّا توزيع الضريبة في البلاد الواقعة تحت سلطة الحاكم المباشرة فينظّم شؤونها موظفون يقسمون كل دائرة إلى ضريبة المدينة مقدارها ألف فلس ذهباً، ويعدّون على هذا المنوال مساحة كل قرية، فيصادق عليها حاكم المقاطعة والإدارة المحليّة، ثم ترسل إلى القسطنطينيّة، وتبقى بدون تغيير حتى حلقة الخمس عشرة سنة المالية. تبدأ الجباية بعد نشر الإنذكتي بأربعة أشهر، وتجري على ثلاثة أقساط تحت إشراف إدارة كل مدينة ومسؤوليّتها.

يُنفق قسم من الضرائب محليّاً (رواتب ومؤن الموظفين والجند ومساعدة الكنائس والأديرة) ويحوّل القسم الآخر إلى الصناديق المركزيّة أو الأهراء العموميّة. لم تعرف بيزنطة قطّ توحيد خزينة الدولة، وهذا ما جعل تقدير مداخيل الإمبراطورية أمراً صعباً، وشجّع الفوضى. ولذا دعت الضرورة في عهد يوستنيانس إلى إيجاد موظّفين مكلّفين خصيصاً بمراجعة الجبايات والتدقيق في خزائن الدولة المتعدّدة، إنهم المراقبون أو ناظرو الماليّة العامة. وتعود هذه الوظيفة وهذا الاسم إلى عهد سحيق، فجاء ذكرهما على أوراق البرديّ المصريّة في عهد مرقس – أوريليوس وفي روما نفسها تحت اسم مدقّق ومدير مصلحة الضرائب. فراقب

المدقّقون في القرن الرابع إيراد أملاك الإمبراطورية وحكموا في دعاوى بيت المال كلها. وعقبهم بعد ذلك مباشرة المراقبون البيزنطيّون وقد عظم شأنهم في ما بعد، وأظهروا نشاطاً عظيماً في عهد أنستاسيوس (419 – 518)، وحلّ المراقب محلّ مدير مساعدات المعابد، في أوائل القرن السابع، وغدا القيّم على مصاريف الإمبراطور الاحتفاليّة، ودخلت في صلاحيّاته مباشرة الأشغال العامّة ومراقبتها، وتوزيع الضرائب والتدقيق فيها وتنظيم سجلات المساحة.

لقد قام منصور بن سرجون، جدّ يوحنا الدمشقيّ بهذا الدور، دور مراقب الماليّة العامة في دمشق، بحسب شهادة تيوفانس.

أصل عائلة يوحنا الدمشقيّ

إننا نجهل الأسباب التي حملت فون كريمر على إلحاق منصور بن سرجون بالأصول البيزنطية، فاسم منصور بن سرجون – وقد نقله إلينا المؤرخون اليونانيّون والسريان والعرب على هذا الشكل غريب عن الأسماء اليونانيّة وهو، على العكس، شائع بين مسيحيّي سوريا العرب. ويحمل اسم منصور مسيحيون من قبيلة أياد[6] على نحو منصور بن يَقْدُم بن أفصى بن دعمي بن أياد، ومسيحيّون من ربيعة وقضاعة[7]. وتؤلف قضاعة كنفدراليّة قوية جمعت بين عادات الحضَر وعوائد الوبر أو البدو، وقد تجوّلت بحواشيها في بادية الشام. وتقع في خراج مراعيها سلَميّة وتدمر وحمص. ومن أفخاذها بنو كلب وقد استوطنوا نجاد القلمون (جبل سنير) بالقرب من دمشق وألّفوا السواد الأعظم من سكان المزّة المتاخمة للمدينة حتى دُعيت هذه البلدة »مزّة كلْب«. وكانوا يضربون خيامهم على النجاد الواقعة بين النبك والحوّارين. وقد اعتنق بنو قضاعة الدين المسيحي باكراً، ونعرف منهم رجلاً متنفذاً هو منصور بن جمهور. أمّا بنو ربيعة فكانوا يتجوّلون ويضربون خيامهم في شمالي سوريا وراء الفرات، على ضفاف نهر الخابور

[6] أياد: قبيلة عربيّة من مَعَد بن عدنان. غُلبت في حروب بينها وبين ربيعة ومُضَر فنزحت في القرن الثالث من تهامة إلى العراق. وأقاموا دهراً، فكانوا يغزون الفرس حتى تولّى كسرى أنوشروان، فغزاهم، ونفاهم عن العراق، فتفرّقوا بين الشام والجزيرة العربية والروم، وقد تنصّر فريق منهم. ومن أياد أبو دؤاد الشاعر وقسّ بن ساعدة الخطيب الجاهلي المعروف (المترجم).

[7] قضاعة: قبيلة عربيّة جنوبية، من قبائل حِمير بن سبا، قطنت شمال الحجاز بين العراق وسورية ومصر، من فروعها: بُلي، جهينة، كلب، بهرا، نهد، جَرم. وكانت النصرانيّة منتشرة في بعضها. (المترجم).

راجع الأب شيخو:

Le Christianisme et le literature en Arabie avant l'Islam, 2e. partie, ler fasc, Beyrouth 1993, p. 251.

بحسب شهادة ياقوت الحمويّ والهمذاني. وقد طافوا عبر السهوب السوريّة قبل أن يستقرّوا نهائياً. وفي أثناء تجولاتهم هذه الكثيرة انسلخ عن القبيلة بعض أفخاذها وسكنوا عند موارد المياه أو اقتربوا من المدن العامرة حيث استقروا وامتزجوا بسكّانها. إن تاريخ العرب في القرون الأولى قبل الهجرة حافل بالأمثال عن تحضّر بعض القبائل. فلا عجب إذاً من أن تكون جماعة أو عائلة من القبيلة استوطنت دمشق. ألم يؤكد ابن دريد أن منصور بن جَعْوَنة من بني ربيعة كان يعدّ من أشراف منطقة دمشق؟

أما اسم سرجيوس فكان شائعاً بين المسيحيّين الناطقين بالضاد إبّان الحكم البيزنطيّ، استعملوه بصيغة سرجيْس ونادراً سركيس وأحياناً بصيغة التصغير سرجون أو سرجَه. وقد خصّت القبائل المسيحيّة السوريّة كلها القديس سرجيوس بتقديس خاص، وشيّدت على اسمه معابد كثيرة أشهرها معبد الرّصافة، وأديرة عديدة على مشارف الصحراء. فكان شفيع التغلبيّين وهم أحد أفخاذ ربيعة الأكثر شهرة، وكانت راياتهم تحمل صورته.

إلى أية قبيلة تنتمي عائلة السرجونيّين؟ لا تنبئنا المستندات عن شيء من هذا القبيل. لعلها تنتمي إلى قبيلة كلب أو تغلب. إن استمرار اسم سرجون في أسرة الدمشقيّ يحملنا على الاعتقاد أنها من أصل تغلبيّ.

لقد اعتنقت القبائل العربيّة السوريّة تعاليم أوطيخا القائل بطبيعة واحدة في السيّد المسيح، إنما لا يُستنتج من هذا أن أفراد عائلة منصور، ولا سيّما يوحنا الدمشقيّ، كانوا على مذهب اليعاقبة. أجل لقد كانت اليعقوبيّة منتشرة بين القبائل العربيّة، على أن بعض الفئات العربيّة، لا بل بعض أفراد العائلة الملكيّة الغسّانية، الحامية الرسميّة لليعقوبيّة، كانوا على مذهب المجمع الخلقيدونيّ. ورغم ذلك، يؤكد الأب إسحق أرملة السرياني انتساب أسرة منصور إلى اليعقوبيّة داعماً رأيه باستشهادات من ابن البطريق، منها أن منصوراً عندما فاوض خالد بن الوليد في أمر تسليم دمشق (635)، طلب إليه أن »يعطي الأمان له ولأهله ولمن معه، ولأهل دمشق، سوى الروم«[8].

يُستنتج من هذا المقطع أمر واحد: أن المنصور وأسرته لم يكونوا بيزنطيّين عرقاً وعنصراً بل مذهباً.

[8] الروم هم البيزنطيون اليونان، وليسوا طائفة الروم المعروفين اليوم في الشام، وأعني الملكيين.

لقد استوطنت أسرة المنصور دمشق قبل القرن السادس وحازت على احترام سكانها الكبير، فأسندت إلى أعضائها مناصب رفيعة في إدارة فينيقية. ويخبرنا ابن البطريق أن منصوراً شغل مركز مدير الماليّة العام، لا بل جعله الإمبراطور موريق (موريس) (582 – 602) حاكم دمشق. وأبقاه هرقل في منصبه بعد اجتياح الفرس، وبعد أن أرغمه على دفع مئة ألف دينار. وقد ظنّ المنصور أن من واجبه دفع هذا المبلغ للساسانيّين أسياده الجدد. فلم يسلّم هرقل بنظريّة موظفه، بل أرغمه على تأدية المبلغ المذكور مرة أخرى. فما كانت هذه المعاملة لتشدّ عرى الولاء والأمانة ما بين الإمبراطور وموظّفه.

إننا لا نستغرب مطلقاً إسناد مثل هذا المنصب الهامّ نسبيّاً، في ولاية بيزنطيّة، إلى أسرة سوريّة عربيّة دمشقيّة، متى عرفنا مسلك أباطرة بيزنطة، ولا سيّما يوستنيانس الثاني، نحو الأمراء الغساسنة. فأنعموا عليهم بلقب بطريق وحتى بلقب ملك، وعهدوا إليهم بأمر حماية حدود المملكة الشرقيّة. »كان نظام اختيار موظفي الإمبراطورية البيزنطيّة ديموقراطيّاً صرفاً يفسح المجال أمام الجميع للوصول إلى أسمى المراتب كما يشهد على ذلك عدد الموظفين الكبير الذين أتوا من الولايات وهم ينتمون إلى أصل وضيع حقير. ممَّن جاؤوا إلى القسطنطينية أولاً كطلاّب علم أو للخدمة في المكاتب، فوصلوا إلى أعلى المناصب الحكوميّة. وقد انضمّ إلى طبقة الأشراف الإداريّة هؤلاء أمراء أجانب استمالتهم بيزنطة أو احتموا فيها، فشغلوا مراكز رفيعة، ولا سيّما أمراء من أسر القفقاس، من أمثال الأرمني خشادور الذي عيّنه رومانس ديوجينس سنة 1068 أميراً على أنطاكية، والأمير الكرجي غريغوريوس باكوريانس، ابن أحد رهائن الملك باسيليوس الثاني المقدوني، وقد أسندت إليه رئاسة جيوش كثيرة في الغرب سنة 1081. ولعلّ أبرزَ مثلٍ على هذا ما حصل لأولاد آخر قياصرة بلغاريا يوحنا فلاديسلاس (1015 – 1018): فقد قام ابنه هارون وحفيده هارون رادومير بوظائف مهمة في بيزنطة وأخلصا لها الخدمة«.

حالة البلاد لدى الفتح العربيّ

في 16 محرّم 14 للهجرة مثلت الجيوش العربية تحت إمرة خالد بن الوليد أمام دمشق وحاصرتها. وكانت الإمبراطورية البيزنطيّة قد خرجت لتوها منتصرة انتصاراً باهراً من

حرب طويلة ومستمرّة ضدّ الفرس. هذا الصراع المرير الطويل الذي نتج عنه إضعاف القدرة العسكريّة من جراء الخسائر الفادحة في الرجال والعتاد والمال. فلم تنعم الإمبراطورية بالهدوء والوقت الكافي لاستعادة قواها وتجهيز جيوشها والتعويض عن خسائرها. وكانت أقاليم من سوريا وفلسطين المستعادة تقطنها نسبة كبيرة من اليعاقبة المستاءة كل الاستياء من الحكم البيزنطي القاسي ومتشوّقة لقبول أي نظام ينقذها من الجَور اليوناني الممقوت ومن ظلم بيزنطة. وكانت مستعدّة لاستقبال العرب كما استقبلت الفرس قبلاً استقبال المنقذين. وقد تسرّب الاستياء إلى سكان البلاد الموالين للطقس البيزنطيّ. فكانوا يتحمّلون على مضض الضرائب المتزايد ثقلها عليهم أكثر فأكثر، ومستائين هم أيضاً من سياسة الحكم المركزيّ بسبب الامتيازات الممنوحة للهراطقة والاتفاقات المبرمة معهم، ولا سيّما في القرن السابع. وكتب ابن البطريق متحدّثاً عن سياسة هرقل المنحازة لهرطقة المشيئة الواحدة أن سكان حمص أبدوا استياءهم من العاهل البيزنطي وقالوا له: »إنك مارونيّ (أي من أتباع المشيئة الواحدة في المسيح) وعدوّ إيماننا«[9].

كانت حدود سورية تشكّل خط دفاع منيع. إلاّ أن الحصون كانت خالية من حاميتها لخشية الأباطرة من الجيوش المجنّدة محلياً ومن القواد أبناء البلاد. الأمر الذي أفقد السوريين مهنة حمل السلاح. زد على ذلك أن الغساسنة أفضل حماة الحدود الشرقيّة في القرن السادس، باتوا مفككي القوى في مطلع القرن السابع. وكان الحكام البيزنطيّون ينظرون بعدم الارتياح والرضى إلى نجاح أتباعهم ومحكوميهم. مما يفسّر لنا تقدم العرب السريع، حتى بلغوا قلب سورية في مدة وجيزة وبعدد قليل من الجند.

حصار دمشق

»دام حصار دمشق ستة أشهر غير متواصلة، أوقفته من حين إلى آخر المناوشات وهجمات المدافعين عن المدينة. فقد كان العرب قليلي الخبرة بفنّ الحصار، وكانت المدينة شديدة

[9] تعكس هذه الشهادة التي أوردها مؤرخ مسلم عقليّة الشعب المستقيم الرأي الأرثوذكسي إبان الفتح العربي: لما عرف المسلمون اقتراب جيوش هرقل، أعادوا إلى سكان حمص ما جمعوا منهم من أموال قائلين: »إننا عاجزون عن مساعدتكم والدفاع عنكم، وترانا مضطّرين إلى أن نتركم وشأنكم«. فأجاب سكان المدينة: »نفضل حكمكم وعدالتكم على الجور والظلم اللّذين تعرضنا لهما قبلاً«. البلاذري، كتاب فتوح البلدان (طبعة De Goeje)، ص 123.

التحصين ووافرة المؤن والمدافعين، بينما اضطرّ المهاجمون باستمرار إلى سحب فصائل من جيشهم وإرسالها لجلب المؤن والعلف. كما كان عليهم أن يصدّوا من حين إلى آخر الهجمات الخارجية. فندرك من ثمّ صمود المدينة طويلاً بنجاح، واضطرار العرب على ما يبدو إلى الاستنجاد بعَمرو من فلسطين ليأتي ويؤازرهم«.

وقد ظن الدمشقيون أولاً أن العرب الفاتحين لن يبقوا طويلاً عندهم وأنهم أتوا للكسب والغنيمة فقط، وسوف ينسحبون عند دنوّ الشتاء. ولكن خاب فألهم عندما حلّ الشتاء ولم تنسحب الجيوش الإسلاميّة، فساورتهم الشكوك.

أما هرقل فقد ترك حمص بعد هزيمة أجنادين وأتى أنطاكية، وأوكل إى القائد ماهان (أو باهان أو بعنس) أمر تأليف جيش من العرب السوريّين ليذهب إلى نصرة دمشق. وقد حاول بدون جدوى تعزيز حامية المدينة وإيقاف تقدّم الغزاة باتجاه حمص ثم عاد إلى أنطاكية. وفيما كان القائد تيودورس سكلاريوس يحشد الجيش الكبير لاستعادة سوريا، كان ماهان يحاول فكّ الحصار عن دمشق واستعادتها. فاستطاع أن يصدّ العرب ووصل حتى بردى. على أنه لم يتمكّن من البقاء طويلاً، واضطُرّ إلى التراجع نحو حمص وجعل فيها مقرّه العام إلى أن ينتهي سكلاريوس من تنظيم جيشه ويكون على استعداد للهجوم. وقد حاولت حامية دمشق صدّ هجمات المحاصِرين الكثيرة. ولمّا تيقّنت من عدم جدوى المقاومة والصمود، وتحققت من تباطؤ الجيوش الإمبراطورية وضعفها لاذت بالفرار وتركت دمشق رهن مصيرها.

سقوط المدينة بيد العرب

لقد تباينت روايات المؤرخين القدماء المسيحيّين والمسلمين حول أيام دمشق الأخيرة قبل سقوطها بيد العرب. ويتفق أكثرها على أن خالداً بن الوليد أدار عمليّات الحصار في القسم الجنوبي الغربي قبالة الباب الغربي والباب الصغير. وتؤكد الروايات نفسها أن الفاتحين دخلوا المدينة من بابين في وقت واحد ويوم واحد، من بابٍ »حرباً« ومن الآخر »صلحاً واستسلاماً«، والتقوا في سوق النحاس أو في سوق الزيت قرب كنيسة تسمّى المكسلّة«[10]. وهنا، بعد المناقشة، تقرّر أن تطبّق بنود المعاهدة على المدينة كلّها، على الرغم من احتلال قسم منها

[10] Maxillat.

عنوةً. وقد وقّع المعاهدة خالد بن الوليد.

لقد روّج ابن عساكر قصة هذا الاحتلال في الشرق ونشرها بعده فون كريمر في الغرب. على أن أسلوبها يكشف أنها اختلقت في ما بعد تملّقاً وتودّداً للفاتحين وتبريراً لاستملاكهم كنيسة القديس يوحنا (الجامع الأموي) في عهد الخليفة الوليد الأول[11] (705 - 715).

وقد عزمت المدينة على الاستسلام أمام إهمال الجيوش الإمبراطورية، وبعد انسحاب الحامية البيزنطية منها بأسابيع، لقد أرهق الحصار الطويل العرب، وقد خافوا من أن يستعيد هرقل قواه وعزمه فينازلهم، فأبدوا مرونة ومسالمة أكثر، ممَّا أتاح لسكان دمشق أن يستسلموا بشرف. والسؤال الذي سيلح علينا الآن: من هو المسيحيّ الذي فاوض في فتح المدينة وتسليمها؟

المفاوض في تسليم المدينة

تحدث الواقدي[12] عن فتح دمشق استسلاماً وخيانة. فكان الاستسلام لأبي عبيدة، على يد وجهاء المدينة على غير علم من توماس حاكم المدينة وصهر هرقل. أما الخيانة فارتكبها كاهن يدعى يوشى بن مرقس، فتحَ الباب الشرقيّ لخالد بن الوليد. ويقول أبو عثمان الصنعاني، إن راهباً وضع شروط الاستسلام لخالد بن الوليد. ويقول سيف بن عمرو إن سكان حيّ الباب الشرقي لما أيقنوا أن العرب اقتحموا الباب خفّوا إلى أبي عبيدة واستسلموا. وكانت المدينة آنئذ تحت إمرة البطريق نسطاس (أنسطاس).

وأورد البلاذري روايتين عن فتح دمشق: الأولى تنسب إلى أسقف المدينة مفاوضات التسليم، بينما فتح الوجهاء خيانةً الباب الشرقي للقائد المسلم. أمّا الرواية الثانية فتحجم عن ذكر الخيانة وتتحدّث عن تسليم المدينة على يد أسقفها فقط. وينسب تاريخ سرياني مجهول الهويّة إلى الشماس الإنجيلي يوحنا بن سرجون تسليم المدينة.

إن الذي فاوض في فتح دمشق، بحسب ابن البطريق وابن العميد هو سرجون بن منصور، على الرغم من أن الروايات متعدّدة في هذا المعنى. وها هي رواية ابن البطريق، وقد أورها

---

[11] هذا هو رأي المؤلف الذي يخالف رأي كثير من المؤرخين المسلمين والغربيين كما سنرى.

[12] ليس الواقدي بالمؤرخ المعتمد، فهو أقرب في كتابه (فتوح الشام) إلى القصاص منه إلى المؤرخ.

ابن العميد حرفياً تقريباً:

».. فلمّا أجهد أهل دمشق الحصار صعد منصور عامل دمشق على الباب الشرقي فكلّم خالد ابن الوليد أن يعطي الأمان له ولأهله ولمن معه ولأهل دمشق وكتب له أماناً هذه نسخته: »هذا كتاب من خالد ابن الوليد لأهل مدينة دمشق: إني قد أمّنتكم على دمائكم ودياركم وأموالكم وكنائسكم ألاّ تُهدَم ولا تُسكن وتسلَّم عليكم«. ودفع له القرطاس ففتح منصور باب الشرقيّ لخالد ابن الوليد. فدخل المدينة وصاح على أصحابه: أغمدوا السيوف. فلمّا دخل أصحاب خالد ابن الوليد المدينة كبّروا، فسمعوا(*) الروم المقاتلة المقيمون على الأبواب التكبير، وعلموا أن منصور قد فتح الباب وأدخل العرب المدينة. فخلّوا عن الأبواب وهربوا..«.

قد تحصل خيانة من قبل المحاصَرين: أما أن تكون الجيوش العربية احتلت دمشق من جراء خيانات جزئيّة، فهذا لا يفسّر معاملة العرب الحليمة لسكان دمشق والشروط الشريفة التي حصلت عليها المدينة وتمتّعت بها، ما لم يكن هنالك شخص معتبر، ذو مكانة مرموقة في المدينة، عمل على تسليمها بحسب الأصول، وجعل السكان ينعمون برعاية ممتازة. لقد لعب منصور الدور الرئيسيّ بصفته حاكم المدينة الأصيل أو الموقّت بسبب انسحاب الموظّفين البيزنطيّين.

وهنا نتساءل، هل يُعدّ مسلك منصور خيانة، كما يدَّعي ابن البطريق؟ لا! لقد نظرت بيزنطة دائماً إلى أقاليم سورية بعين الاحتقار والازدراء. فلا عجب والحالة هذه أن تنفر منها قلوب السوريّين وتبرد المحبة لحكامهم وتحلّ مكانها الكراهية لسياسة الحكم البيزنطي السيّئة. وقد لاقى سكان أقاليم كثيرة الجيش العربي بالترحاب والابتهاج لإنقاذه إياهم من الظلم والجور. أجل، لقد كان منصور ملكيّ العقيدة على نحو السواد الأعظم من أهالي دمشق، ولم يشك من تسلّط بيزنطة الدينيّ، إنما تأكد عدم اكتراث الإمبراطورية بالأقاليم الشرقيّة، وأن هرقل أضعفُ من أن يردّ عنها العدوان. فكان من الأفضل بالتالي التفاهم المباشر مع هؤلاء السذّج أبناء الصحراء، وقد أبدوا اعتدالاً نادراً في فتوحاتهم كلّها. لقد جهل العرب ضعف القوات الإمبراطوريّة، فكانوا ينشدون التخلّص من حصار طال أمره عدة أشهر، ويتوقعون أن يطوَّقوا من لحظة إلى أخرى. فاغتنم منصور ـ ما دام الوقت مؤاتياً ـ فرصة هذا الخوف الوهميّ الذي يوحيه للغزاة اسم الإمبراطوريّة، لينال منهم أفضل الشروط الممكنة، فينقذ هكذا المدينة من غوائل الحصار الطويل ومشاهد السلب والعنف والدمار التي ترافق الفتوحات، ويصون مستقبل

(*) **الأصح نسمع.**

حقوق مواطنيه وأموالهم. فاستحقّ بمسلكه هذا، لا اللوم، بل عرفان الجميل.

وقد شعر مسيحيّون كثيرون أن هذه الغزوة تختلف عن الغزوات العاديّة، وأن الإمبراطوريّة الرومانيّة التي تمثل آنئذ العالم المتمدّن، لا بدّ من أن تتغلّب عاجلاً أو آجلاً على هؤلاء الغزاة، مردّدين في قرارة أنفسهم: »لننتظر الشتاء، فيعيد إلى الجزيرة العربية هؤلاء القوم. لا بدّ من أن ندع العاصفة تمرّ ونحاول إنقاذ الحاضر ونبعد عن المنطقة أهوال الحرب«. تلك هي المشاعر التي أوحت على الأرجح مسلك ابن سرجون ووجهاء دمشق، إذ لم يكن لهم من يستأنسون بمشورته. لقد هجرت الحامية البيزنطيّة مواقعها بجبانة، تاركةً إيّاهم لمصيرهم المحتّم.

وقد تكون اعتبارات شخصيّة لعبت دورها أيضاً ودفعت المنصور إلى أن يخطو الخطوة الأخيرة. لقد كان عربياً، تغلّبت عليه النعرة القوميّة على روابط الدين التي تشدّه بالإمبراطوريّة. لقد آثر أن ينضمّ إلى إخوانه في العِرق على أن يساعد بيزنطة، ولا سيّما أنه كان غير راضٍ عن هرقل، وممتعضاً منه إذ أجبره على دفع مئة ألف دينار للخزينة. على أن هذا الامتعاض لم يكن الدافع الجازم الذي حمل المنصور على تسليم المدينة، وإلاّ نكون ألصقنا بهذا الرجل صغر النفس ودناءة العاطفة والشعور.

لقد نظر ابن سرجون إلى الحاضر، فلم يفكر بالمستقبل؛ وأنه بفتحه أبواب المدينة للعرب سلّمهم إياها إلى الأبد. وقد برّر أحد الكتبة الملكيّين في القرن الثاني عشر موقف ابن سرجون ومسلكه، وشبّه عمله بعمل مواطنه صفرونيوس بطريرك أورشليم وأضاف: »عندما طال حصار المدينة، رجع منصور إلى الله يستلهمه عمّا يجب فعله. فأوحى إليه أن يسلّم المدينة، وقد قيل له: إني تخلّيتُ عنها إلى حين. هذا ما وجده مكتوباً وأكدّه أحد إخوتنا«.

محاولة استرجاع المدينة

لقد وقعت دمشق بيد العرب في 10 أيلول 635، ومكث فيها يزيد على رأس فرقة من الجيش ليوطد احتلال المدينة وجوارها، ويعيد الأمن والاطمئنان إلى سكانها وإلى جهات حوران وبتانيا.

أمّا هرقل فقد أسرع وحشد في سوريا الشماليّة جيشاً لا تجانس فيه ولا وحدة بين أفراده، قليلَ التدريب العسكريّ ومؤلفاً من الأرمن والسوريّين المسيحيّين المستعربين، ومن جنود جاؤوا من معسكرات الأناضول. وأُسندت قيادة هذا الجيش إلى تيودورس سكلاريوس وباهان (أو ماهان أو بعنس). وكان على رأس العرب المسيحيّين الأمير الغساني جَبَلة بن الأَيْهَم. وعندما شعر الجيش الإسلامي بقلّة عدده حيال الجيش البيزنطي، عزم على ترك دمشق وتمركز في الجابية، على مسيرة يوم جنوبي المدينة. فهاجمه البيزنطيّون هناك، واستطاع العرب المقاومة (23 تموز 636)، ثم ذهبوا وتحصّنوا وراء نهر اليرموك أحد سواعد نهر الأردن الشرقيّة. فثار الأرمن في معسكر البيزنطيّين وامتنع العرب السوريّون عن القتال في خضمّ المعركة، فانكسر الجيش شرّ كسرة (20 آب 636)، وتقرّر مصير سورية في انتصار العرب هذا في موقعة اليرموك.

يضع ابن البطريق وابن العميد موقعة اليرموك قبل حصار دمشق، وينسبان إلى منصور بن سرجون دوراً هامّاً حاسماً فيها، إنما يختلفان في الحكم على سلوكه. فيرى الأول الخبث والدهاء في ابن سرجون، فيما يعتقد الثاني أن ما فعله حادث وقع قضاءً وقدَراً، إذ اعتصم منصور بعد الهزيمة وراء أسوار دمشق مع فلول الجيش البيزنطيّ المنهزم، مصمّماً على القتال حتى النهاية. ويمدّنا المؤرخان ببعض التفاصيل عن موقف منصور من باهان عندما سار هذا متعقّباً جيوش العرب. فأمر باهان منصور؛ باسم هرقل، أن يدفع، ولو جزئيّاً، رواتب الجنود الذين أسرعوا لنجدة دمشق. فأجاب منصور أنه لا يملك شيئاً من المال؛ وفي نيّته على الأرجح أن يقيم ثورة في صفوف الجيش ليسلّم المدينة للعرب. فاضطُرّ باهان أن يتابع مسيرته بدون مال. فجاء وضرب معسكره على ضفة نهر وادي الرقاد، على بعد يومين من المدينة، ويدعى المكان الجولان أو يعقوصا[13]. وكان النهر فاصلاً بينه وبين العرب. ومضت أيام والبيزنطيون معسكرون هكذا قبالة العرب، عندما خرج منصور من دمشق وجاء يحمل المال الذي جمعه من المدينة قاصداً معسكر باهان ليدفع رواتب الجند، ولمّا اقترب من المعسكر يرافقه جمع غفير من سكان دمشق حاملين المشاعل، وقد أسدل الليل ستره على الطبيعة، أخذوا يقرعون الطبول وينفخون بالأبواق ويطلقون الصرخات، وهي حيلة غدر استنبطها منصور. فلما رأى البيزنطيّون المشاعل وراءهم وسمعوا صوت الأبواق وقرع الطبول، ظنّوا أن العرب غدروا بهم

[13] يعقوصا: اسم قرية صغيرة قريبة من فيق، تشرف على وادي يعقوصا الجاف في الصيف والذي يصبّ في نهر اليرموك شتاءً، وقد اشتهرت باسم الواقوصة.

وانقضوا عليهم من خلف، فهربوا وألقوا بأنفسهم في نهر وادي الرقاد، هذا النهر الكبير، فهلكوا ولم ينجُ إلا العدّد القليل ففرّ الإدبار من كل جهة.

إن ظروف المعركة حقيقة تتلاقى كلها من حيث الجوهر عند أغلب المؤرخين المسلمين، إنما لم يأتِ ولا واحد منهم على ذكر تدخّل المنصور هذا الغريب. هل أراد ابن البطريق أن يسوّد صحيفة المنصور ودوره، فجعله سبب أكبر هزيمة لحقت بالجيش البيزنطيّ؟ قد يجوز.. وقد نقل ابن العميد على حسب عادته رواية البطريق كما هي. ومن المرجّح أن يكون المنصور أقام العراقيل في سبيل دفع المال الضروريّ للجيش، أو إن صناديق الخزينة المؤتمن عليها كانت فارغة بسبب احتلال الجيوش العربية لدمشق، على أنه لن يلعب الدور المشين الذي نسبه إليه ابن البطريق وبعده ابن العميد[14].

انتصار العرب

كانت هزيمة البيزنطيّين كاملة كاسحة. وقد صاح هرقل وهو في أنطاكية ينتظر نتيجة المعركة: »وداعاً يا سورية إقليمي الجميل، لقد أصبحت للعدوّ« وأخذ طريق الأناضول. أما خالد بن الوليد فقال: »سورية تشبه جملاً راقداً مرتاحاً«[15].

لقد أصبح العرب أسياد البلاد، واستسلمت دمشق ثانية، بعد أن صدّت الجيوش العربيّة بعض الوقت، على ما يبدو، على الرغم من استعدادات السكان للتسليم. ممّا أتاح للعرب إعادة النظر في شروط التسليم الأولى. فقد بقيت البنود المهمّة على حالها، إنما أرغم المسيحيّون على التخلّي عن بعض كنائسهم واحتفظوا بخمس عشرة، منها كنيسة القديس يوحنا المعمدان الكبرى.

أمّا الجالية البيزنطيّة في دمشق، التي لم تغادر المدينة بعد الاستسلام الأول، فقد تقلّص عددها ونزحت عن دمشق والتحقت بفلول جيش هرقل المنهزم واتجهت قبلة أنطاكية. وزعم ابن العميد أن المنصور انضم إلى فلول الجيش بعد تسليم المدينة، وهذا ينافي كل المعطيات التاريخيّة المعروفة.

---

[14] المؤلف يسميه مشيناً.

[15] مقولة وصياغة غريبة، لا ندري مرجعيتها.

لم تقاوم المدن السوريّة الأخرى الفاتحين مقاومة جدّية (638)، بل تعهّد معظمها بدفع الجزية تلافياً لويلات الحصار والسلب، مما أتاح للبلاذري أن يصف هذا الفتح »فتحاً يسيراً«. فقدّمت المدن التي أخلتها الحامية خضوعها في كل مكان حتى حلب وأنطاكية، وأسهمت في نفقات الحرب (فتوح، ص 116، 126).

وأتى الخليفة عُمر ليشرف على البلاد المغلوبة، ويقرّر مع أبي عبيدة ومستشاريه الخطّة الواجب اتّباعها في المناطق التي تمّ فتحها، ويعيد النظر في المعاهدات، ويحدّد واجبات المنتصرين والمغلوبين وحقوقهم. فأتى إلى الجابية، وعقد فيها »يوم الجابية«، ورئس اجتماعات دامت ثلاثة أسابيع، تداول في أثنائها مع الزعماء العرب حول تنظيم الفتح الجديد، وأسند إلى يزيد بن أبي سفيان منصب قائد جند دمشق.

وينسب سعيد بن عبد العزيز التنوخي إلى يزيد بن أبي سفيان مفاوضات تسليم دمشق استناداً إلى شهادة البلاذري وابن عساكر، رغم تعارض إفادات المؤرخين المكيّين العديدة لشهادتهما. فلا ينكر هؤلاء المؤرخون المكّيون وجود ابن أبي سفيان حين استسلمت دمشق. وكان هذا الزعيم العربي عالماً بمسلك المنصور بن سرجون. فلمّا أصبح حاكم دمشق لم ينس بادرة المنصور، تلك التي أتاحت للعرب فتح أهمّ مدن سورية. ولذا لم يدّخر وسعاً في إظهار الثقة له وإغداق النعم عليه. فثبّته في المنصب الذي شغله في عهد البيزنطيّين، ولربما منحه لقب »مولى حليف«، وقد حمله أحفاده من بعده. »إن ولاء سرجون بن منصور للسفيانيّين جعله مقرّباً منهم ومتمتعاً بامتيازات ومقيّداً بواجبات الحليف والموالي والصديق«.

نفوذ عائلة منصور

ومذ ذلك الحين أخذت عائلة منصور تتدخل عمليّاً في حياة السلالة الأمويّة الخاصة والعامة، على أن نفوذها هذا لم يدفع بها إلى تسمية الخليفة وعزله، كما ظنّ موزل مبالغاً. ولدى موت يزيد انتقل حقّ »الولاء« إلى أخيه معاوية ثم إلى يزيد بن معاوية.

لقد أكّد بعض المؤرخين المسلمين، على نحو ابن عساكر وابن شاكر، مستدين إلى هذا اللقب، أن ابن منصور انتحل الإسلام، إذ كان المَوالي يدينون عادةً بدين أسيادهم. على أنه لم

يحصل شيء من هذا لوالد القديس يوحنا الدمشقيّ ولم تُطبق هذه القاعدة العامة دائماً في الشريعة الإسلامية. وقد أثبت الأب لامنس أن »المولى الحليف« وحتى »المولى المعتق« (أي المحرَّر) كانا يحتفظان بدينهما أحياناً على الرغم من ولائهما للخليفة. وممّا يدحض تخرّصات ابن عساكر وابن شاكر، تلك الألقاب التي خلعها المؤرخ تيوفانس عى سرجون بن المنصور إذ أسماه »المسيحيّ كل المسيحيّ« فضلاً عن تلك التربية المسيحيّة الحقة التي أعطاها لابنه يوحنا والتي أشاد بها كل من كتب سيرة الدمشقيّ. لو كان سرجون بن المنصور مسلماً لمَا بنى لأبناء دينه كنيسةً بعد فتح دمشق: ولمَا كان ابنه يوحنا الدمشقيّ ذلك القديس العظيم الذي أجمعت على تكريمه الكنيسة جمعاء على اختلاف طقوسها[16]. وسوف نأتي على ذكر بعض أفراد أسرة المنصور الذين اعتنقوا الحياة النسكية وزهدوا في العالم أو شغلوا مناصب دينيّة عالية.

لقد اقترن ذكر المنصور باللعنة في القسطنطينية البيزنطية المهزومة، ولم يوفّر الكتبة الملكيّون أنفسهم عائلة الدمشقيّ، ولا سيما أنصار بدعة محطمي الإيقونات. فقد ألصقوا بها التعابير الشائنة ورشقوها بأشنع النعوت وأسفلها (أولاد الحرام)، ولو جحد سرجون بن المنصور دينه حقيقة واعتنق الإسلام لوجد هؤلاء وأولئك فرصة سانحة ليكيلوا للقديس نفسه الشتائم والمعايب.

لا نعلم بالتدقيق تاريخ وفاة المنصور. لعلّه توفي في أواسط القرن السابع. لقد أطلعنا ابن البطريق أن المنصور عيّن ناظراً للمالية في عهد الملك موريق (582 - 602)، وكان له خمس وعشرون سنة من العمر على الأقل، عندما تسلّم هذه الوظيفة،/ ممّا يحملنا على الافتراض أنه ناهز الثامنة والسبعين حين سقطت دمشق في يد العرب (635)، ولعلّه لم يعمّر طويلاً بعد فتح المدينة، فلحق بيزيد أول حاكم على دمشق، الذي مات سنة 639.

يخبرنا الأب لامنس أنه اطلع في مخطوط المكتبة الشرقيّة، رقم 552، ص 58 على أن المنصور اعتزل في دير القديسة كاترينا في سيناء بعد تسليم دمشق، وألّف هناك كتاب »شرح المزامير« المنسوب إلى أنستاسيوس السينائي. ويضيف المخطوط إلى أكثر من هذا، أن هذا الشخص أعني المنصور قد غيّر اسمه كنسياً ليصبح أنستاس، والذي ألّف »شرح المزمور السادس«. لقد أساء المستشرق العالم فهم المخطوط. فيتحدّث كاتبه عن قائد جيش هرقل باهان، لا عن المنصور، ويؤيّد هذا الرأي ابن البطريق وابن العميد، إذ يؤكّدان أن باهان هرب بعد

---

[16] مذاهبها.

هزيمة اليرموك، خوفاً من المثول أمام الإمبراطور، ولجأ إلى سيناء وترهّب واتخذ اسم أنستاس.

خلافة معاوية

لقد خلف معاوية، مؤسسُ السلالة الأمويّة، أخاه يزيد في قيادة جند دمشق، وله من العمر خمس وثلاثون سنة، وقد كان قبلاً أمين سر[17] النبي محمد، ثم التحق بالجيش تحت إمرة أخيه يزيد فبرّز في القتال وأتمّ وحده فتح فينيقية. وعندما نودي بقريبه عثمان بن عفّان خليفة سنة 644، بعد اغتيال عُمر، تقوّى ونوى أن يجعل من سورية قطراً نموذجياً. فاستمال إليه سكان الإقليم وأخذ يعتمد على القبائل السوريّة رعايا الغساسنة سابقاً وحلفائهم. وعهد إلى السوريين الذين اقتبسوا من الثقافة المسيحيّة وفنون بيزنطية وأساليبها الشيء الكثير، أن يدرّبوا العرب الرحّل الفاتحين الذين أتوا سورية على الحياة السياسية والنظام الإداري. فألّف السوريّون المسيحيّون العرب كوادر الجيش الأموي، وعلّموا الجنود »طاعة أهل الشام« التي طالما وصفها المؤرخون العرب وأشاد بها الحجّاج في خطبه إلى أهل العراق. لقد غدا معاوية خليفة سنة 660، وجعل عرشه في دمشق. »فكان داهيةً في السياسة، جوّاداً على رعاياه. فاستمال عطفهم واستهوى قلوبهم بإنعاماته الوافرة وإحساناته العظيمة التي أغدقها عليهم بفنّ فائق، حتى جعلوه فوق أقربائهم، وفضّلوه على روابطهم العائلية«. ».. لقد جمع في شخصه الحلم والرؤية الصائبة في الحكم، والسلوك الحكيم، واللباقة في تعامله مع الناس بحسب مقامهم، وتلك المودّة وذلك الاعتبار اللَّذين أبداهما نحوهم على حسب مركزهم الاجتماعي«. لقد تفوّق بعض الخلفاء على معاوية بالبسالة وشظف العيش وحبّ العلوم، على أنه لم يتميّز ولا واحد من الخلفاء بما امتاز به معاوية من المواهب التي جعلت منه مؤسس إمبراطورية: نظرة صائبة، حزم وسرعة في التنفيذ، رحابة صدر، تتابع في الأفكار، بُعد عن الأحكام المسبقة القديمة، فنّ في التمثيل واستخدام الأشخاص. لقد ترك في السلالة التي أسّسها أثراً لا يمحى حتى إن المبرزين من خلفائه اقتصروا على الاقتداء به.

---

[17] كان واحداً من كتبة الوحي.

تنظيم معاوية لأمور الدولة

لقد أوحت له رحابة صدره أن يصطفي لتسيير أمور الدولة الرجال الأكفّاء أينما وجِدُوا، بدون تفرقة في الجنس أو الدين **فلم يتردّد في الاعتماد على الجيوش العربيّة المسيحيّة للدفاع عن مركزه المهدّد من علي** وعهد إلى مسيحيّين تميّزوا بحكمتهم ورويّتهم وتفوّقهم في العلوم الإدارية والماليّة على عرب الحجاز في أن يحتلوا المناصب الرفيعة في الدولة. فوكل إلى طبيبه ابن آثال جباية خراج حمص، واحتفظت أسرة المنصور الدمشقيّة بمنزلتها وكرامتها.

ويفيدنا الطبري أن سرجون بن المنصور لبث »كاتب معاوية وصاحب أمره« ورجل ثقته حتى وفاة الخليفة. وسبب ذلك، خدمات أبيه منصور أيّام الفتح، وولاؤه لآل سفيان، **واحتياج أسياد سورية الجدد إلى خبرة موظفي بيزنطة القدماء**، وهنالك سبب آخر داخليّ: »يعلم الخليفة علم اليقين أخلاق مواطنيه الإداريّة، وأنه من السهل عليه أن يجبر المسيحيّ على »المحاسبة« ودفع الضريبة، بينما يتعذّر عليه الأمر مع أشراف المسلمين، فيضطرّ إلى قبول تسوية تعود غالباً بالخسارة على خزينة الدولة. وكان معاوية يحتاج أحياناً إلى المال لأغراض سياسيّة شخصيّة، ويتحاشى أن يكون تحت رقابة المسلمين الشديدة، فوجد في الموظفين المسيحيّين مرونة وليناً يفتقر إليهما المسلمون العرب. إذ كانوا يظنّون أن خزينة الدولة المسمّاة »بيت مال المسلمين« هي لهم، يتصرّفون بها تصرفهم بمالهم الخاص«.

وقبل أن يرتقي معاوية سدّة الخلافة، فكّر في إخضاع بيزنطة. فعمل أولاً على تعزيز فتوحاته في فينيقية، وأسكن فيها جماعات أتى بها من العراق لتحلّ محلّ المسيحيّين الذين هجروا ديارهم بعد الفتح الإسلامي. وشعر أنه لن يأتي عملاً مجدياً ما دام الروم أسياد البحر. فعقد النيّة على إنشاء أسطول قويّ يساعده في ذلك بحّارة لبنان المسيحيّون. فجهّز أسطولاً، كانت باكورة أعماله السلب على شواطئ قبرص سنة 649 ثم بعد مرور خمس سنوات (654) احتلّ العرب جزيرة رودس. وبعد هذا بقليل، حطّموا على سواحل ليدية القوى البحرية البيزنطيّة التي كانت تحت إمرة الإمبراطور قنسطان الثاني نفسه.

واستدعت هذه الأعباء الجديدة أموالاً باهظة متناسبة، عجز الحجاز عن تقديمها. وعندما تربّع معاوية في دست الخلافة كانت خزينة الدولة تحت عجز كبير، والتبذير ضارباً أطنابه في الأقاليم الخاضعة لسلطة علي بن أبي طالب، لذلك لم يكن في وسع الخليفة إلاّ الاعتماد على

واردات إقليم سورية، »إذ حتّم عليه نظام »الطعمة« ألاّ يطالب ممثّله عمرو بن العاص بشيء من أموال مصر[18]. وقد تمتّع العراق بإدارة خاصة«، مع أنه من الضروري أن تساهم الأقاليم كلها بنفقات الدولة العموميّة. زد على ذلك أن الفكرة السائدة آنئذ عند العرب تعتبر أموال خزينة الدولة ثروة الفاتحين الجماعيّة، فتوزَّع منحاً ودخلاً مدى الحياة. وقد تحوّلت في ما بعد إلى هبات وراثيّة على سكان مكّة والمدينة والمهاجرين وجميع المسلمين بدون استثناء الأرامل والأولاد والرضّع! فكأنما وجدت الخزينة لتكافئ الفضائل الإسلاميّة.

تنظيم أموال الخزينة

لقد كان معاوية سليل أسرة خبيرة بالشؤون الماليّة، فعزم على تنظيم أموال الخزينة وتحديد الهبات العامة، مستعيناً بزياد بن أبيه وسرجون بن منصور. فأنشأ وزارة ماليّة، وألحق بها »ديوان المقاتِلة« وجعل على رأس هذه الوزارة الجديدة سرجون بن منصور والد يوحنا الدمشقيّ. فكان عليه أن يحدّد الضرائب المفروضة جبايتها، كما كان يفعل على عهد بيزنطة فكان يفرض جزية الرقبة أو خراج الأعناق على غير المسلمين، وضريبة الأرض أو الخراج على جميع الرعايا، وكان يسهر على تحصيلها كاملة ويؤمّن رواتب جند البر والبحر ويحتاط لتقديم ما يحتاجون إليه من غذاء وعدّة. وأنيطت بوزارة الماليّة هذه، الإنشاءات البحريّة ونظارة مستودعات الذخيرة والمخازن العسكريّة وبناء السفن. وهكذا تضمّنت هذه الوزارة وزارتي الحربيّة والبحريّة، مما يدلّ دلالةً واضحة على علوّ مكانة سرجون بن منصور في تسيير شؤون الخلافة الأمويّة. فتدفقت على خزينة الدولة الضرائب العينية والنقديّة. إلا أن عائدات أملاك الدولة لا تكفي لسدّ الحاجات كلّها. لقد استنبط فكر معاوية الخلاّق وسائل أخرى لتغذية الخزينة. فوجّه نظره إلى الهبات والمنح. وبما أنه يصعب عليه إلغاؤها، فقد حوّلها إلى أداة تسلّط ومنهل عائدات للخزينة. فنظّمها وجعلها لمكافأة الخدمات المقدّمة للدولة. كما أرغم جميع المستفيدين منها على الطاعة للأوامر الملكيّة عن طريق التهديد بإيقاف توزيعها. وقد أنشأ عليها ضريبة العشر أو »الزكاة«، بحسب شهادة اليعقوبي، فأمسى هذا الإجراء الضريبيّ مداراً على الخزينة، نظراً إلى عظم مبالغ المنح والهبات الموزّعة. وقد ألحق جباية الزكاة »بديوان المقاتِلة« المكلّف بدفع رواتب الجيش. فنتصوّر عندئذٍ المبلغ العظيم الداخل على الخزينة سنويّاً

[18] فقد وهبها له حسب الاتفاق.

فـي حـال اقتطـاع دينـار مـن كـل منحـة أو هبـة، وأيّ واجـب خطيـر ملقـى علـى كاهل مـنظّم هـذه المصـلحة ومـديرها! وقـد تلغـى المـنح والهبـات أحيانـاً عقابـاً للمخالفـات فـي الخدمـة العسـكريّة أو تنشيطاً للهمم السياسيّة المتقاعسـة. وقـد يحصـل منازعـات حـول السـن المطلوبـة لقبض المنحـة أو يلجـأون أحيانـاً إلـى طـرق ملتويـة، علـى نحـو مـا كـان يفعـل عُمـر الخليفـة الثـاني لمحمـد (صـلعم): »إذا مات صـاحب منحـة في شهر السنة الثامن، أعطاه عُمر ثلثـي المنحـة فقط« (البلاذري 461، 12)[19].

صلاحيّات وزير الماليّة

انحصرت صلاحيّات وزير الماليّة في سورية فقط حتـى سنة 660، ثـم اتسـعت مـع اتسـاع الفتوحات إلى أرجـاء الخلافـة الأمويّـة كلهـا، مـن جبـال طـوروس إلـى المحيط الهنـدي، ومـن نهـر الهند إلى القيروان. وعظـم شـأن هـذه الـوزارة مـع اتسـاع اللفتوحـات، وخضـعت لمراقبـة سـرجون الماليّة أفريقيا الشماليّة، وقسم مـن آسيا الصـغرى، والعـراق، وخراسـان، وانصـاعت جيـوش البـر والبحـر التـي حملـت السـلاح حتـى المغـرب وحتـى مـا تحـت أسـوار القسـطنطينية لهـذا المسـيحي القـابض بدقـة علـى زمـام أهمّ الأمـور فـي الإمبراطوريـة العربيّـة، وقـد قـام سـرجون بـن منصـور بأعبـاء وظيفتـه بكـل أمانـةٍ وإخـلاص حتـى إن معاويـة، وهـو علـى فـراش المـوت، كلّفـه أن يسـيّر أمور الدولـة بعد موتـه مع الضحَّاك بن قيس ومسلم بـن عُقبـة، حتـى يتسنّى لوريثـه يزيـد أن يعتلـي عـرش الخلافـة، إذ كـان يقـود حملـة حربيّـة فـي آسـيا الصـغرى. وأبقـى يزيـد (680 ـ 683) لسرجون جميع الامتيازات والحقوق التي منحـه إياهـا معاويـة والـده وكـان يستشيره فـي الظـروف الصعبة[20].

وقد جاء في كتاب الوزراء والكتّاب للجهشياري:

---

[19] كانت تعدّ مدينة البصرة، أو بالأحرى إقليم البصرة، في عهد عليّ، ستين ألف مقاتل وأكثر من سبعة عشر ألف ابن مقاتل يستطيع حمل السلاح. وتحوي الكوفة عدداً مماثلاً. وبعد مضي ربع قرن ارتفع عددهم إلى مئة ألف في أيام الحجّاج، ويتقاضى الكلّ راتباً. وقد تبرّع للخليفة الوليد الأول 45 ألف مقاتل من جند دمشق بربع راتبهم لبناء الجامع الأمويّ الكبير (لامنس، دروس، ص 249 ـ 250). كما أن ثلاثة آلاف من قبيلة كلب في سورية كان يتقاضى كلّ منهم ألفي درهم. أما عدد اليمنيّين الذين يتقاضون راتباً في مدينة حمص فقد بلغ عشرين ألفاً (الأغاني، 5، ص 155).

[20] كان الجيش والماليّة يشكلان ركيزة الحكومة العربيّة كلّها، فجعلت هذه الوظيفة الإداريّة من سرجون رئيساً للحكومة ووزيراً للماليّة ووزير حربيّة الخلافة، تمتدّ سلطته إلى العمليّات الحربيّة، حتى إن إهماله لها كان يمكن أن يقود إلى الخسارة وأوخم العواقب (لامنس، سورية، ص 70).

»لما علم يزيد بتقدم الحسين، رضي الله عنه، نحو الكوفة، كره ذلك وشقّ عليه. فاستشار سرجون بن منصور في مَن يولّي على العراق، ليقاوم الحسين، فقال له سرجون: عبيد الله بن زياد، وكان يزيد كارهاً له، فقال: لا خير فيه، فسمِّ لي غيره، فقال: أرأيت لو كان معاوية حيّاً فأشار به عليك، أكنت قابلاً؟ فقال نعم. فأخرج إليه عهداً من معاوية لعبَيد الله بولاية الكوفة، وعليه خاتمه، وقال له: هذا عندي، ولم يمنعني من إخبارك به من أول الأمر إلاّ علمي ببغضك لعبَيد الله، فقال له: فأنفذه إليه. وكان عبيد الله يتقلّد البصرة مع مسلم بن عمرو الباهلي«.

معاوية الثاني

وسار معاوية الثاني (683) على خطى والده. »وكشف نصّ »عوانا« عن نفسيّة الملك الشاب الطبيعيّة وعدم خبرته، وقد أنهكته العاهات المبكّرة ورزح تحت أوزار الحكم. وحمله الشعور نفسه بعدم كفاءته، ولربما حسّ خفي بدنوّ أجله، على التخلّي عن تبديل موظفي الحكم السابق. فاكتفى بتثبيتهم وتجديد سلطتهم«. وبعد البيعة بعدّة أسابيع، وهي حفلة الاعتراف الرسميّ بتسلّم السلطة، جمع الخليفة ابنُ يزيد مؤتمراً في دمشق، ليؤلّف مجلس وصاية، لاعتلال صحته وعدم مقدرته على الاضطلاع بمهامّ حكم الإمبراطوريّة. فانتخب مجدّداً الضّحاك بن قيس وسرجون بن منصور والوليد بن عُتبة، ابن عمّ الخليفة. ولم تزعزع سرجون من منصبه الحروب الأهليّة التي عكّرت صفو حكم يزيد ومعاوية الثاني، ولا انتقال الخلافة من آل سفيان إلى آل مروان، بل ثبت في وظيفته لإخلاصه وتفانيه في مصلحة الخليفة الشرعيّ وأمانته للدولة. ويخبرنا الطبري وابن عساكر وابن عبد ربّه والمسعودي أن سرجون بن منصور مارس مهامّ وظيفته حتى خلافة عبد الملك (685 – 705). ويشاركهم في الرأي ميخائيل السوريّ وتيوفانس المؤرّخ اليوناني. ويضيف هذا الأخير أن سرجون كان مقرّباً جدّاً لدى الخليفة، وقد ذكر ميخائيل السوريّ وابن العبري حدثاً يبرهن عن شدّة أمانة سرجون للخليفة وللدولة وللمصالح العامة. فقد عيّن الخليفة أثناسيوس برغومي، أحد أشراف الرّها المسيحيّين، رئيساً للماليّة في مصر. فأثرى هذا بسرعة حتى غدا صاحب أملاك واسعة في الرّها، يملك أربعة آلاف عبد وقرى وحوانيت، وبساتين وذهباً وفضة بكثرة. فاسترعى هذا الإثراء السريع انتباه وزير الماليّة وارتاب في أمره، فوشى بأثناسيوس أمام الخليفة، مدّعياً أنه اختلس أموال الدولة. »ولما مثل أثناسيوس أمام الملك، استقبله هذا برحابة صدر وقال له وبهدوء: يا أثناسيوس، لا نرى لائقاً أن يجمع مسيحيّ مثل هذه الثروة الطائلة. أعطنا قسماً منها. فقدّم له أثناسيوس إلى أن قال الملك »كفى!«. وبقي لأثناسيوس الشيء الوافر منها«[21].

وينسب ميخائيل السوريّ وشاية سرجون إلى الغيرة والحسد. إنها لتهمة باطلة! لا غرو،

---

[21] ميخائيل السوري، 2، ص 477. كانت هذه الثروات غير المشروعة مألوفة عند الموظفين العرب. ويسمّي العرب التداول بالأموال »مأكلة وطعمة« (لقمة)، مما يعطينا فكرة عن عقليّة الموظفين الذين يجمعون ثروات فاحشة من استغلالهم الأقاليم. وقد تخلّى للخزينة خالد القصري حاكم العراق وأنزه العرب السوريّين عن مئة مليون درهم للخزينة، لدى اعتزاله منصبه. راجع الطبري، 2، ص 1654 – 1655. راجع بشأن هذه الثروات غير المشروعة: Van Vloten, La Domination des Arabes, p. 24 – 25, 30 sq.

فإن هذا البطريرك اليعقوبيّ يغتنم كل سانحة ليطعن في سرجون الوزير الخلقيدوني. فضلاً عن أنه يبالغ كل المبالغة في دور أثناسيوس الإداري وأهمّيته. فقد جعل منه وزير الخليفة الأول، في حين أن المؤرخين العرب لم يعترفوا له بهذه المكانة وهذه الصفة.

إقصاء سرجون عن منصبه

وقد أضاف واضع »كتاب الموارد« بعد أن اعترف بأن سرجون كان ناظر الماليّة في أيام عبد الملك: »كان سرجون بن المنصور المسيحيّ مكلّفاً بديوان الشام في عهد عبد الملك بن مروان. وقد أمره الخليفة فعصى. فصرفه عبد الملك وجعل مكانه محمّداً بن يزيد الأنصاري«. وينسب ابن عبد ربّه لعبد الملك إقصاء سرجون عن منصبه. وقد يكون سرجون بن المنصور اقترف تقصيراً في واجباته، وتباهى بعمله وثقافته، وظنّ أنه ضروريّ للجهاز الإداريّ، مما أثار استياء الخليفة. وقد صمّم عبد الملك على استبدال اللغة اليونانيّة بالعربية في ديوان المحاسبة، وعيّن بحسب ابن عبد ربه سليمان بن سعد ليخلف سرجون ـ وليس محمداً بن يزيد الأنصاري. ويدعم الجهشياري رأي ابن عبد ربّه.

وقد عكّرت صفاء حكم المروانيّ الثاني عبد الملك سلسلة حروب واضطرابات: صراع ضدّ ابن الزبير عدوّ الخليفة، حروب ضدّ المردة الذين تغلغلوا إلى أعماق سورية بدافع من البيزنطيّين. وفيما يراقب الخليفة أحداث ما بين النهرين من منطقة حلب »تمرَّد عبيد دمشق وانضمّ إليهم السفلة وأدركوا الجبال، واقتحم سجناء المدينة أبواب سجونهم وفرّوا«. ورفع الفلاحون راية العصيان، وقد ألهبتهم الضرائب. فهل كانت هذه الأحداث صدى لأمر الخليفة الموجَّه إلى ناظر ديوان المقاتِلة؟ كلاّ، على ما نعتقد، فلا يجوز أن نضع موضع الشكّ أمانة سرجون الموظّف المسنّ، على الرغم من روابط التبعيّة التي كانت تشدّه إلى آل سفيان لم تعد تجمعه بالأسرة المروانيّة الجديدة على نفس القوة. ويجب التقصّي عن سبب إبعاد سرجون ضمن إطار الأمور الماليّة التقنيّة لا السياسيّة.

لقد عمد عبد الملك، سنة 700، إلى تعريب لغة الدواوين. فلم تعد الإمبراطورية العربيّة المتصاعدة تقبل أن تكون دون أهل الذمّة ثقافة ومعرفة، وأن ترى المسيحيّين المكلّفين بدفع الجزية يحافظون على لغتهم اليونانيّة في تدوين معاملات الدولة الرسميّة. وإذ لم يستطع الخليفة

أن يستغني عن خدمات المسيحيّين، أراد على الأقل أن يُدخل اللغة العربيّة في حسابات الدولة، واستبدل النقد البيزنطيّ الذهبي بالدينار العربي رغبةً منه في ترسيخ استقلاله التامّ. وقد تكون هذه الإجراءات سبب تنافر بين الخليفة ووزيره. لقد عزّ على الموظف المسنّ المعتاد على نظم مثبتة قائمة أن يُضطر إلى تبديلها والاستعاضة عنها بقوانين جديدة. ويعود سبب إقصاء سرجون عن الحكم أيضاً إلى الإجراءات الجديدة التي اتخذها عبد الملك: »التعديل« أو المساواة. فكان على كل مسيحيّ أن يُطلِع السلطة على أمواله وكرومه وشجر زيتونه وحتى على عدد أولاده. »فكان هذا الإجراء علّة كلّ الشرور التي حلّت بالشعب المؤمن، يقول ديونيسيوس التلمحريّ. ومنذ ذلك الحين استعبد أبناء هاجر أبناء آرم استعباداً يذكِّر باستعباد الإسرائيليّين في مصر«. وقد يكون اعتراض سرجون على هذه الإجراءات التعسّفية ما أثار امتعاض الخليفة فأقصاه.

إن ابن عساكر، مؤرّخ دمشق، أكثر اطلاعاً من المؤرخين السابقين. إذ يسرد مطوّلاً كيف حاول الخليفة التخلص من وزيره، معتمداً في روايته على »إسنادٍ« يعود إلى سليمان بن سعد نفسه. فكان الهدف من إقصاء سرجون التخلّص من سيطرة المسيحيّ على إدارة الدولة، وتلك كانت الفكرة التي أوردناها سابقاً.

لقد استحضر عبد الملك بن سعد إلى صنَّبره وأشعره بالاستياء المستولي على نفسه من جراء استيلاء المسيحيّين على إدارة شؤون المسلمين، ورغب إليه في أن يحلّ مكان سرجون القائم على رأس دواوين العرب والعجم. فرفض سليمان العرض تخوفاً من المسؤولية، وشرح للخليفة أسباب رفضه. فلم يجارِه الخليفة بل شدّد عليه عبد الملك ليقبل. وفي هذه الأثناء أقبل رَوحٌ بن زنباع. فانسحب ابن سعد. فعرض الخليفة على رَوح قضية سرجون ثم تركه مع سليمان بن سعد. فألح رَوح على سليمان كي يقبل العرض وإلاّ »أخشى أن تدوم الحالة على ما هي عليه من »تولية النصارى«. فاشتكى سرجون بعد ذلك من مرضه الذي سوف يودي بحياته. فأرسل الخليفة يسأله عمن هو أهل ليتسلّم وظيفته. فأجابه ابن منصور: »إن كان من المسلمين فسليمان بن سعد، وإن كان من النصارى ففلان رجل من بعلبك«. فمات سرجون وولّى عبد الملك مكانه سليمان بن سعد، وهو أول مسلم تولّى الدواوين كلها وأبدل اللغة اليونانية بالعربيّة. وكانت وفاة سرجون في أواخر سني عبد الملك، وقد ناهز الثمانين من العمر على الأقلّ، وقضى ستين سنة في خدمة الخلافة.

حالة المسيحيّين

أجل لم تُنسِ أشغالُ ابن منصور الجسيمة ومقامه الرفيع وجاهته المسيحيّة، ولم يُضطر إلى الدفاع عن حقوق ذوي معتقده، لأن آل سفيان والأولين من آل مروان احترموها دائماً، إنما عمل لدى السلطات القائمة بصفته زعيماً مدنياً سياسيّاً، وممثّل السكان المسيحيين.

لم يعانِ المسيحيّون كثيراً من تغيّر الأوضاع خلال عشرات السنين الأولى التي عقبت الفتح، لا بل كانت هذه الحقبة مصدر نعمة ورخاء لأتباع بعض المذاهب كاليعاقبة مثلاً الذين نعموا بحكم مستقلّ، وحظي رؤساؤهم الدينيّون بامتيازات ماديّة وقضائيّة كثيرة. أجل، قد حدثت مجازر وأُحرقت كنائس وقامت على الحكم أقليّة لا تشارك الأكثريّة المسيحيّة عقيدتها، على أنه لم يكن في الأفق ما ينبئ بمضايقات ومناورات واضطهادات الحقب اللاحقة. إذ لا ننسى أن العرب السوريّين المسيحيين ساعدوا إخوتهم قاطني الصحراء في حروبهم ضد بيزنطة، ولهم بالتالي حقّ ـ إن لم يكن في عرفان بدو الحجاز بجميلهم ـ فعلى الأقل ببعض الحقوق التي يتمتّع بها آخرون يدينون بدينهم.

لم يلجأ الفاتحون إلى الشدّة والعنف ليفرضوا على المغلوبين معتقداتهم الإسلاميّة. إن الاتفاقات المبرمة بين القواد المسلمين والمدن المختلفة تعترف للمسيحيّين بحريّة المعتقد وبالمحافظة على أكثر كنائسهم. وقد بقيت قائمة كنائس كثيرة وأديار عديدة في سورية وفلسطين. »ولبثت سوريّة بلداً مسيحيّاً، فيها كنائس رائعة ذائعة الصيت على نحو كنيسة القيامة وكنيسة اللدّ والرّها«. وما زال الصليب مرفوعاً فوق كنائس وأديرة يقوم بخدمتها رجال دين كثيرون، وشيّدت كنائس جديدة في المدن التي بناها المسلمون مثلما جرى في الفسطاط والبصرة. وحافظت سورية على طابعها كبلد كسيحيّ حتى نهاية الحقبة الأمويّة، وكان السواد الأعظم من سكان المدن مسيحيّاً. غير أن إلغاء معسكرات الجباية بالإضافة إلى طاعون عمواس ودابق حمل قسماً من الفاتحين على الاستقرار في المدن، فاحتلّوا على الأخص الأحياء التي هجرها المسيحيّون ممن آثروا الالتحاق بالجيوش البيزنطية المنسحبة. وعلى الرغم من هذا كله، ظلّ العرب في سورية، وفي مقدّمتهم الخلفاء الأمويون، يصبون إلى الإقامة في المدن الصحراويّة الصغيرة على نحو تدمر والرصافة وخناصرة وحوّارين، وبقيت المدن الكبرى من مثل دمشق وأنطاكية وحمص والقدس محافظةً على طابعها القديم وسابق سكانها مما جعلها أوساطاً مسيحيّة طوال القرن الأول للهجرة. أمّا القبائل المسيحية النازلة في صحراء سورية ـ

ما عدا التنوخيّين والتغلبيّين ـ فلم تُبد من التمسّك بمعتقداتها الدينيّة ما أبداه سكان المدن. فكانت مسيحيّتها سطحية إلى حدّ أنّ تغيير الدين لا وزن له بنظرها. ويبدو أن الفاتحين ـ على الرغم من إطلاقهم الحريّة الدينيّة لسكان المدن، وأغلبهم من غير عرقهم ـ قد حاولوا أن يستميلوا القبائل إلى دينهم الإسلامي. وأراد عمر أن يرغم التغلبيّين على ألاّ يعمّدوا أولادهم. فرفضت هذه القبيلة الأبيّة. ممّا حمل عليّاً على القول: »إني أعلم ما أفعل بهذه القبيلة المسيحيّة. فبما أنهم مصرّون على عماد أولادهم، سأقتل محاربيهم وأبيع ما تبقّى منهم عبيداً«. وقد حاول معاوية نفسه أن يستميل التنوخيّين والتغلبيّين إذ كان يجد فيهم إخواناً عرباً، حتى إذا ما ربحهم شدّهم نهائياً إلى صفوف فرسانه البواسل، إلاّ أنّه لم يتجاوز حقوقه ولم يلجأ إلى وسائل القسر والعنف شأن العباسيين من بعده مع التنوخيّين. وهكذا قد انتحل الإسلام فروع من بني كلب وجذام وعاملة، لا عن عقيدة أو ضغط، بل بسبب التقارب العرقي فحسب: »فقد انتحل هؤلاء الإسلام، لا إيقاناً بالإسلام، بل انحيازاً للفكرة العربية الكبرى، فكرة تفوّق جنسهم التي كان الإسلام يظلّلها آنئذٍ برايته المظفرة«.

لقد حافظ هؤلاء المهتدون الجدد على العادات المسيحيّة، ولم يأنفوا من تعلّق ذويهم ونسائهم بدينهم الأول، بل تابعوا أحياناً، إرضاءً لخاطرهم، قرع أجراس الكنيسة المجاورة حيث قبلوا هم أنفسهم سرّ العماد المقدس. فقد عاش المسيحيون تحت حماية الإسلام لقاء ضريبة شخصيّة »الجزية« يدفعونها، كما كانوا يدفعون علاوة عنها ضريبة عن الأراضي والعقار اسمها »الخراج«. وقد وضعتهم هذه الضرائب على مستوى أدنى من المسلمين، وكرّست عدم المساواة بين العرب والمغلوبين. قال عُمر: »أولئك سيأكلهم المسلمون (يقتاتون من تعبهم) ما داموا أحياء، فإذا هلكنا وهلكوا أكل أبناؤنا أبناءهم«. وهذا ما دفعه، على الأرجح، إلى أن يوصي خليفته بالذميّين لأنهم سند عيالكم«.

لم يكفّ المسلمون عن إشعار المسيحيّين أنهم »ذمّيون«. وقال جرير للأخطل يوماً في ثورة غضب: »لا حيّاك الله يا ابن النصرانيّة. أما منعك نومي فلو نمت عنك لكان خيراً لك. وأمّا تهضمك قومي فكيف تهضمهم وأنت ممّن ضُربت عليه الذلّة والمسكنة وباء بغضب من الله..«. وقال يهجو الأخطل:

يا ذا العَباءة إن بِشراً قد قضى ... أن لا تجوزَ حكومةُ النَشوانِ

فـدعوا الحكومـةَ لسـتُم مـن أهلهـا	إنَّ الحكومـةَ فـي بنـي شـيبانِ
لعـنَ الإلـهُ مَـنِ الصـليبُ إلهُـهُ	واللابسـينَ بـرانسَ الرُهبـانِ
تغشـى الملائكـةَ الكِـرامُ وفَاتَنـا	والتغلبـيُّ جنَـازةُ الشَـيطانِ
وإذا وزنـتَ بمجـدِ قـيسٍ تغلبـاً	رجَحـوا عليـك وشِلتَ فـي الميـزانِ
تلقـى الكـرامَ إذا خُطِـبْنَ غواليـاً	والتغلبيَّـةُ مَهُرهـا فلسـانِ

لقد أنف التغلبيون من دفع الجزية. فرضخ الخليفة عُمر لإرادتهم واكتفى بأن فرض عليهم الضريبة المطلوبة من المسلمين مضاعفة تحت شعار الصدقة والزكاة.

لقد ساعد توطن المسلمين في المدن على انتشار الإسلام. وكان بعضها نظير حمص إسلاميّاً جزئيّاً في عهد الخليفة هشام. وقد أزكى روح التعصّب في سكان هذه المدينة إقامة خالد بن الوليد فيها، فمنعوا المسيحيّين من الخروج بالصليب خارج الكنيسة. ومع هذا يقول الأب لامنس؛ »نعتقد أن عدد المسلمين في آخر القرن الأول الهجري لم يتجاوز مئتي ألف على أربعة ملايين سوريّ تقريباً. ونستطيع أن نضيف إلى هذا العدد بعض آلاف من الحديثي العهد في الإسلام لنحصل على مجموع المسلمين في سورية في تلك الحقبة«.

على الرغم من شعور المسيحيين بتدنّي مستواهم الاجتماعي، فقد نعموا بحقبة من الطمأنينة والتسامح لا يُستهان بها حتى خلافة عُمر الثاني. وإذا استثنينا بعض الانفجارات التعصبيّة المحليّة، كما حدث في حمص، فلا اضطهاد منظّم ولا دعاية دينيّة تؤازرها السلطة، بل على العكس قد أبدى أولو الأمر كل احترام ومراعاة لحرمات المسيحيّن. ودفعت قلّة خبرة المسلمين الإداريّة إلى طلب مؤازرة المسيحيّين في الشؤون الإدارية التي سبروا غور مشكلاتها المعقّدة. وظلّت المراكز الرسميّة في سورية تستعمل في سجلات الدولة والسجلات المحليّة اللغة اليونانيّة المستعملة في العهد البيزنطي، واللغة اليونانيّة والقبطيّة في مصر. وضربت في دمشق سنة 643 عملة برونزية تحمل رسم قنسطان الثاني. وحاول معاوية في السنة الأولى لخلافته سكّ عملة من الذهب والفضة خالية من الصليب فرفضها الشعب.

وكانت حالة المسيحيّين طوال الخلافة الأمويّة متناقضة تتكيّف، على ما يبدو، بالمقتضيات السياسيّة والنزوات الشخصيّة. وكان معاوية على جانب كبير من التسامح. »وفي سنة 971

للسلوقيّين (660 ميلادية) التأم جمع غفير من العرب والأمراء في أورشليم، على حدّ قول مؤرخ سرياني مجهول، لينادوا بمعاوية ملكاً. فصعد هذا الأمير إلى الجلجلة، ثم أتى الجسمانية، فقبر الطوباوية مريم العذراء حيث صلّى من جديد«. وقد دمّر زلزال كنيسة الرّها الكبرى المعروفة بالكنيسة القديمة، فأعاد الخليفة بناءها على نفقته، وأتاح لابنه يزيد أن يتردّد بين جماعات المسيحيّين. ولمّا طعن في السنّ، أصيب بالأرق. فكان يفيق كل ليلة على صوت أجراس كاتدرائية القديس يوحنا المجاورة لقصره »الخضراء«، ولم يشأ أن يسكتها بالعنف بل لجأ إلى الحيلة، وإذ لم تنجح، اكتفى بها. وقد راودته فكرة تحويل الكنيسة التيودوسيّة (كاتدرائية القديس يوحنا) إلى مسجد، إلاّ أنه لم يتجاسر أن ينفّذ فكرته. وكذلك عبد الملك، فقد امتنع في ما بعد عن القيام بمثل هذا العمل للأسباب السياسيّة نفسها.

لقد سبق وقلنا إن معاوية، قبل ارتقائه سدّة الخلافة، اعتمد على الجيوش العربيّة المسيحيّة في موقعة صفّين على الرغم من استنكار علي، ولم يجد حرجاً في إسناد أهمّ المراكز الإداريّة إلى المسيحيّين كالسرجونيّين وابن أُثال طبيبه الخاص. وقد نعم بحظوة الخليفة أطباء مسيحيّون آخرون أمثال أبي الحكم وابنه الحكَم.

لقد استقرّ معاوية في دمشق، بين عرب يمنيّين، أكثرهم من رعايا الغساسنة ومسيحيّون أيضاً. وكانت زوجته ميسون مسيحيّة من قبيلة بني كلب. ولذا آثر أن يتحالف مع هذه القبائل مفضلاً إياها على قبائل الحجاز، وغدا هذا التحالف في ما بعد حرزاً للسلالة الأمويّة، ولن يطول الأمر حتى غدت البحدليّة مرادفاً لأتباع الأمويّين. وقد زوّد اليمنيّون الجيش السوري بأوفر عدده، وانتقى الخليفة منهم بحّارة أسطوله ونشّط حماسهم بمنحٍ ماليّة. وكلّما تحدّث المؤرخون عن حياة الخليفة الخاصة، أظهروه عادة بين اليمنيّين. وإذا ما ركنّا إلى رواياتهم ووصفهم تبيّن لنا أن مراسيم البلاد في دمشق تخوّلهم المنزلة الأولى حالاً بعد أمراء الأسرة المالكة. لقد كان نفوذهم عظيماً يدعمه ـ علاوةً على نزعة الخليفة إليهم زوجة معاوية وعطف ابنهما يزيد السافر، وريث العرش. وقد مال أعضاء الأسرة المالكة، على منوال الخليفة، إلى أن يحيطوا أنفسهم بمسيحيّين ويستخدمونهم. وهكذا نرى مروان بن الحكم والي المدينة النشيط والقويّ الشكيمة يؤلف في ذلك الحين شرطةً مكوّنة من مئتي مسيحيّ عربيّ، جاء بهم من ميناء أيلة أو إيلات على البحر الأحمر. وقد عهد الوليد بن عقبة شقيق الخليفة عثمان من أمّه بنظارة السجون في الكوفة إلى رجل مسيحيّ، وأمر بأن يعطى صديقه الشاعر المسيحي أبو زُبيد بيتاً

محاذياً للمسجد الكبير، فيجتاز الشاعر المسجد كلما أراد الالتقاء بالوليد. وبعد أن عاش هذا الأمير الأموي بصحبة المسيحيّ ـ وقد أسماه أخاً ـ طلب أن يدفن إلى جانب صديقه عند موته. وكان المسيحي إسطفانس، أمين سر عبد الرحمن بن زياد، والي خراسان.

وهكذا قضى يزيد صباه بين ظهراني أخواله المسيحيّين زعماء قبيلة كلب، في صحبة أتراب مسيحيّين كالأخطل والمنصور بن سرجون، أي القديس يوحنّا الدمشقيّ، وقد تحرّر علناً من أحكام الشريعة الإسلاميّة حتى اتّهمه بعض المؤرخين المسلمين بانتحال المسيحيّة. وقد عهد بتثقيف ابنه إلى راهب مسيحيّ. ويخبرنا ابن العبري أنّه أبقى حكّاماً مسيحيّين على مقاطعات كثيرة والرّها خصوصاً. فقد ظلّت هذه المدينة مدّة طويلة يحكمها أنستاس بن أندراوس.

وكان قصر الخلفاء مفتوحاً للشعراء المسيحيّين والمسلمين على السواء. ويُستقبل فيه الأعشى من بني تغلب والنابغة من بني شيبان بكل حفاوة وإكرام. أجل لم يتجاسر هؤلاء الشعراء أن يتناولوا بصريح الكلام المواضيع المسيحيّة، وبالغوا في مديح الإسلام بغية كسب رضاهم ورضى الموظفين، ما عدا الأخطل الذي قال عنه عبد الملك: »لكل أسرة منشدّها، ومنشد الأمويّين الأخطل« أو »هذا شاعر أمير المؤمنين، هذا أشعر العرب«، فكان يبيح لنفسه حريّات كثيرة في كلامه عن النبي محمد والإسلام تدهشنا اليوم. ويدهشنا أيضاً هجاؤه الشهير للأنصار (مناصري النبي)، قدّيسي الإسلام، إذ أنحى عليهم بألذع الكلام والمعايب، فيجد في يزيد محامياً ومناصراً ضدّ الأنصار الحانقين بحقّ على »ابن النصرانية« لسوء المعاملة التي خصّهم بها. وقد اعتاد هذا الشاعر المسيحيّ أن يعلّق على صدره صليباً من ذهب، مما سبّب له لقب »حامل الصليب«، وأن يظهر في البلاد رافع الرأس، فيشقّ صفوف الحاشية الملكيّة المتراصّة، عارضاً على جميع الأنظار الصليب المعلّق بعنقه. فلا يجد ملازمو البلاط ما يعترضون به على شهادة الإيمان هذه. أمّا الغرباء، سكان مكّة والمدينة النازلون عرضاً في البلاد، فكانوا على العكس يستاؤون كلّ الاستياء من هذا المشهد. وقد عرض حادث يوماً نجهل طبيعته، دعا أهل الكوفة إلى الاجتماع في المسجد. فجاء قوم إلى الأخطل يقولون له: »إن أردت أن تبدي عرفان الجميل لعكرمة، انتهزها فرصة لن تعود«. فارتدى الأخطل ثوبه الحريريّ وامتطى فرساً أصيلاً وأتى المسجد. فلمّا بلغ الباب ونزل، لم يتمالك الذين رأوه عن إخفاء استيائهم، إذ لم يحتملوا معاينة مسيحيّ تغلبيّ في مثل هذا العتاد. أما عكرمة فما شاهد الأخطل حتى أسرع إليه وحيّاه بمظاهر الصداقة الحميمة والتجلّة الفائقة.

وقد أباح الأخطل لنفسه حريّات مع الخليفة ما تجاسر آخر عليها إلاّ جلب لنفسه غيظ الأمير. إن كتاب الأغاني حافل بقصص مداعبات عبد الملك والشاعر النصراني. وبعد أن قتل بنو سليم التغلبيّين في بشر، سعى الأخطل إلى دمشق، وقد نجا من الموت، ومَثَل أمام الخليفة وثيابه مخضّبة بالدماء وارتجل قصيدة طويلة جاء فيها:

لقد أوقع الجحاف بالبشر وقعة إلى الله منها المشتكى والمعولَ

ثم أخذ تحت وطأة الألم يشكو من مماطلة الحكم والعدالة عند بني مروان، حتى أتى على هذا البيت حيث التهديد ظاهر:

فإن لم تغيّرها قريشٌ بمُلكِها يكن عن قريشٍ مُستَمازٌ ومَزْحلُ

وفي مناظرة أدبيّة في حضرة عبد الملك بين جرير والأخطل أنشد هذا مديحه الشهير في بني أميّة:

شُمسُ العدواةِ حتى يُستقادَ لهمْ وأعظمُ الناسِ أحلاماً إذا قَدَروا

فصاح الخليفة: »لا فضّ فوك، أنت خطيبنا المقرّظ وشاعرنا، اصعد على ظهر مُناظرك«. وما سمع الأخطل هذا الكلام حتى خلع معطفه وشمّر رداءه، وقبض بيده على عنق خصمه. فصرخ جرير مستنجداً: »يا أمير المؤمنين، لا يحقّ لمسيحيّ كافر أن يسوم مسلماً هذه المذلّة« فأيّدّه الحاضرون وقالوا: »الحقّ معه، يا أمير المؤمنين«. إلا أن الخليفة لم يكترث بهذا الكلام، حتى إذا ما وطئ المسيحيّ بقدمه عنق خصمه، قال عبد الملك: »كفى!«. وارفضّ المجلس. وقد كان عبد الملك يدعو بعض المسيحيّين إلى انتحال الإسلام، ولكن بدون أدنى ضغط من قبله، ولا يُظهر أدنى استياء عندما كان هؤلاء يرفضون.ولما بلغ الخليفة الذي نشأ في أوساط المدينة المتزمتة، حيث كان يعد من اشهر الفقهاء، أن أباه أضحى أمير المؤمنين، أغلق القرآن وهو يقول: »لم يعد بيننا بعد الآن من جامع«. ولم يكن عطفه على المسيحيّين مقصوراً على الشعراء فحسب، فقد عيّن أثناسيوس الرهاويّ مربّياً لأخيه عبد العزيز، ورافق أثناسيوس هذا تلميذه إلى مصر، حيث أصبح حَكَم الإدارة هناك. وكان طبيب الخليفة الخاصّ سرجون النسطوريّ.

ومن دواعي حظوة المسيحيّين عند السفيانيّين والمروانيّين الأولين، عدم التشدد الديني عند

هـؤلاء وأولئـك، ثـم حاجـة الخلفـاء إلـى مـؤازرة المسـيحيّين فـي الإدارة وفـي تـدبير شـؤون الإمبراطورية المترامية الأطراف. ومنذ أن آثر معاوية دمشق على مكة، ظهرت في الحجاز حركة انفصاليّة ضدّ خلافة آل سفيان. إلاّ أن مرونة مؤسس السلالة وحزمه حالا دون كلّ حركة ثوريّة. وقد لبث تحالف قبائل ما بين النهرين والعراق موالياً بمعظمه لعليّ، ولم يخرج عنه سوى مسيحيّي تغلب. ولمّا مات معاوية قامت المدينة تدعو بخلع يزيد. فناصره التغلبيّون وكان لمناصرتهم النصيب الأوفر في قمع العصيان، »فكانوا كالسمّ القاتل لأهل المدينة، وكان الصليب مرفوعاً في المقدمة على راية القديس سرجيوس« حسب شعر الأخطل. ولم يحجم الأخطل عن التذكير بدور قبيلته هذا في قصيدته الشهيرة »خفَّ القطين« الموجهة إلى عبد الملك:

وقـد نُصـرتَ، أميـرَ المـؤمنين، بنـا ... لمّـا أتـاك بـبطنِ الغوطـة الخَبـرُ

يعرّفونـك رأي ابـنِ الحُبـاب وقـد ... أضـحى وللسَّـيف فـي خيشـومه أَثَـرُ

لا يسـمع الصـوت مسـتكّاً مسـامعُه ... ولـيس ينطـقُ حتـى ينطِـقَ الحجَـرُ

وفـي مرج راهط آزرت أيضـاً القبائل العربيّـة المسيحيّة تنوخ وغسان وتغلب وآل كلب مؤازرة جبّارة باسلة القضيّة الأمويّة، وبفضل هذه المؤازرة انتقلت الخلافة من يدي معاوية الثاني الضعيفة إلى مروان، ولم يتوانَ بنو كلب في تذكير المروانيّين بما أتوه من فضل في تثبيت دعائم العرش:

نزلنـا لكـم مـن منبـر الملـك بعـدما ... ظللـتم ومـا إن تسـتطيعون منبـرا

أو

فـإلاّ يكـن منّـا الخليفـة نفسُـه ... فمـا نالهـا إلاّ ونحـن شـهودُ

»لقد حافظ التغلبيّون، في أثناء الحروب الأهليّة التي شغلت قسماً كبيراً من ملك عبد الملك، على أمانتهم المستمرّة نحو هذا الخليفة، أمانةً تستحقّ الأجر والعرفان، لا سيما في بلاد ما بين النهرين، حيث كادوا ينفردون بمناصرة قضيّة الأمويّين ضدّ مهاجمة عرب مصر وأنصار أبناء الزبير المتحالفين«.

اهتمام الأمويين بالرأي العام والشعر

لقد اهتمّ عهد الأمويين اهتماماً بالغاً بالرأي العام. فكان الشعر آنئذ المنبر الدائم الواسع الانتشار القائم بدور الصحافة في أيامنا الحاضرة. ويشكّل الشعراء جزءاً ملازماً لحاشية الأمير العربيّ. فيبعث حضورهم الحياة في البلاط وفي الاستقبالات والحفلات الرسميّة. كما أن تقاريظ هؤلاء الشعراء، مؤرخي العهد الشبه الرسميّين، توحي إلى المعاصرين الشعور المنسجم مع سياسة الأمير، وتكسب له الرأي العام.

لقد خدم الشعراء المسيحيّون مراراً القضيّة الأمويّة، ولم تقتصر خدمتهم على الثناء الموجّه إلى الأمراء فحسب، ذلك الثناء الذي كانت تتغنّى به القبائل، بل وجّهوا الرأي العام في بعض الظروف الحرجة، كما فعل نابغة بني شيبان بتحريض من عبد الملك، بغية تحويل أنظار العرب نحو الوليد ابن الخليفة ليكون وليّ العهد.

علاقة المسيحيّين والمسلمين

كانت العلاقات الشخصيّة بين المسلمين والمسيحيّين ودّية على الإجمال حتى المروانيّين الأولين، لا بل حتى خلافة عُمر الثاني، فلم ينشأ أبداً روح تحزُّب وتفريق بين المسلمين والمسيحيّين المولودين من أصل عربي. وقد حفظ لنا التاريخ أسماء مسيحيّات عديدات تزوّجن من مسلمين، وظللن مع ذلك محتفظات بحريّة ممارسة دينهنّ. وقد كانت مسيحيّات كلب »نسوة مناجيب تغلو في قريش مهورهنّ«.

وقد شغل المسيحيّون في الكوفة، مدينة القرّاء ومركز الشيعة، منازل تجاور أحياناً مساجد، يستعملونها ممرّاً. ونرى الأخطل نفسه في جامع الكوفة يحمل في عنقه صليباً ذهباً، يحيط به اشراف المدينة ويبتّ في الأمور المعروضة لتحكيمه.

لقد استمرّ المسيحيّون يمارسون شعائرهم الدينيّة، لا تزعجهم السلطة ولا الشعب، يسارعون إلى حضور الرتب الدينيّة في الليل. وكانوا في دمشق ينامون في كنائسهم كي لا

يحرموا من هذه الاجتماعات الليليّة. ولم يكتموا مطلقاً معتقداتهم بل كانوا يعلقون جهراً في أعناقهم صلباناً صغيرة، وغالباً ذخائر من الصليب الحقيقي. إن مأتم البكري أبجر بن جابر، زعيم قبيلة بني عِجل ـ وقد قالوا فيها »إن الصليب هو بعلها« - وقد أفسح المجال للمسيحيين ليقوموا بتظاهرة عظيمة. فسار الصليب في مقدّمة الموكب، فيما تتصاعد الترانيم وسحب البخور. فاجتاز الكوفة موكبُ جنازة الزعيم العجوز البكري، يتقدّمه الإكليروس المسيحيّ ويسير وراءه أكابر الإسلام.

وقد تلجأ الطوائف المسيحيّة المختلفة إلى السلطات الحكوميّة الإسلاميّة لتحسم الخلاف الناشيء بينها. وما زال كَتبة الدواوين المسيحيّون حتى مطلع القرن الثاني للهجرة يرسمون علامة الصليب على ظهر الوثائق الرسميّة، كما تشهد على ذلك مخطوطات البرديّ في مصر، المكتوبة باللغتين اليونانيّة والعربيّة. وكان رؤساء هؤلاء الكتبة المسلمون يثبتون ختمهم إلى جانب الصليب بدلاً من أن يمنعوا ذلك.

الحرف اليدويّة والمهن الحرّة..

كانت الحرف اليدويّة كالتعمير والخياطة وصنع الأحذية إلخ.. محتقرة عند العرب حتى قبل الهجرة، زاولها سكان سورية الأصليّون وظلّوا يتعاطونها في أثناء العهد الأموي، حتى إنهم احتكروا التجارة والصناعة واستغلال الحرف اليدويّة. زد على ذلك المهن الحرّة التي كانت محصورة في غير المسلمين. وكانت المصارف في حوزة المسيحيين، وكانوا أمناء أسرار الملوك والعظماء وأطباءهم، يديرون مدارس عامّة يؤمها أحداث العرب. ومنهم كان المهندسون والبناؤون والخبراء في علم المياه وحفر الأقنية ومصلحة المياه وما إليها. وكانوا القائمين على مخازن الأسلحة ومعاملها ومراكز الإنشاءات البحريّة. وقد ظلّوا حتى بعد إصلاحات المروانيّين قابضين على أغلبيّة الوظائف في الإدارات الماليّة والاقتصاديّة. وكان هذا الوضع المرموق الممتاز بمثابة تعويض وافٍ عن حرمانهم من الرواتب الرسميّة المقصورة على الفاتحين.

المسيحيّون والجيش

كانت أبواب الجيش، في أول الأمر، موصدة في وجه المسيحيّين من أصل غير عربي. على أن هذا الإيصاد لم يشمل التغلبيّين ولا التنوخيّين ولا القبائل العربيّة المسيحيّة الأخرى وقد برزت كلها في فتح بلاد الفرس. لقد مشى أنصارُ الأخطل إلى ميدان الحرب يتقدّمهم الصليب وراية القديس سرجيوس شفيعهم. لكن الانكسارات التي حلّت بالعرب في إسبانيا والأناضول ووباء الطاعون الذي فتك بالمعسكرات العربيّة وأفرغها، أرغمت الحكومة على سدّ هذا الفراغ في الجيش بتعبئة جميع المواطنين المسيحيّين. »ومن هؤلاء اختار الفاتحون بحّارة وضباطاً، ونقباء وربابنة ونوتيّة لقيادة أساطيل الحرب«.

الفصل الثاني

المحيط العائلي

مولد يوحنا الدمشقيّ

وُلد يوحنا في دمشق. تثبّت هذا المستنداتُ التاريخيّة كلُّها، وقد أيّدتها شهادة المجمع المسكونيّ السابع. ولقّب بـ»الدمشقيّ« إشارة إلى مسقط رأسه ولقِّب بـ»دفّاق الذهب« أو »ناقل الذهب«، وهو اسم بردى نهر مدينته لما تحوي مؤلفاته من كنوز روحيّة ثمينة.

ما هو تاريخ مولد يوحنا؟ لقد كتمت عنا سيَر حياته القديمة هذا التاريخ. فلجأ الكثيرون من كتبة عصرنا الحاضر إلى حسابات مختلفة وافتراضات عديدة بغية سدّ هذا السهو الهامّ. فحدّدوا مولده بين سنة 670 و680[22].

اسمه

على الرغم من أن اسم يوحنا يونانيُّ الأصل ومسيحيٌّ صرف، فليس بغريب عن الأدب وأسماء العَلَم العربيّة، حتى في أيام الجاهليّة. نجده في صيغة يَحْنا ويَحَنّة وحَنّة ويُوحَنّة. وكان اسم الأسقف، أمير أيلة، يوحَنّة بن رؤبة، وقد دعاه محمّد (صلعم) إلى الإسلام. كما كان اسم والد الصحابيّ عمرو حنّة أيضاً. أيكون اسم الدمشقيّ الدينيّ يوحنا؟ هذا غير ضروريّ! ولقد يكون حمل اسمين، أحدهما يونانيّ (يوحنا) والآخر عربيّ (منصور). وكثيراً ما حمل أشخاص في الشرق اسمين، وحتى في أيامنا الحاضرة، فإن أسراً كثيرة تطلق على أولادها اسمين: اسماً أوروبياً واسماً عربيّاً. وقد سمّى ابنُ العبري قدّيسنا كوريني بن منصور، والكتبةُ الأقباط »يَنَح بنَ منصور« وأبو الفرج الأصفهاني »ابنَ سرجون«.

---

[22] أول من خلع على القديس الدمشقيّ لقب »ناقل الذهب« تيوفانس المؤرخ. وتبعه بعد ذلك كل واضعي سيَر القدّيسين البيزنطيّين. وقد أورد السبب: »لقد لُقّب بكلّ حق »ناقل الذهب أو دفّاق الذهب« بسبب النعمة المتألّقة في كلامه وحياته« (تاريخ سنة 6221، ص 629).

محيطه العائلي

إننا نفتقر إلى مصادر وثيقة تساعدنا على وصف المحيط العائلي الذي قضى فيه الدمشقيّ سني حداثته الأولى. وكان يمكن لسعادتنا أن تكون عظيمة لو اطلعنا على بعض التفاصيل عن حياة أسرة سرجون الخاصة. ولكن مرشدنا الوحيد هو سيَر القديسين. إلاّ أن إفادتها لا تستند دائماً، لسوء الحظ، إلى الحقيقة والواقع.

حداثته

لقد انقضت حداثة يوحنا الأولى، على ما يبدو، في جوّ السعادة والهدوء، فلم ينقصه شرف الحسب ولا الغنى ولا الإكرام ولا المحيط العائليّ المثاليّ. وقد بدت عليه، منذ نعومة أظفاره، إمارات النجابة ورجاحة العقل والقلب المتجلّية في كتاباته. وقد وفّر له والده قسطاً قيّماً من الثقافة العالية يتناسب مع ثروته ومكانته الاجتماعيّة.

مدارس دمشق

إننا نفتقر إلى المعلومات الوافية عن مدارس دمشق المسيحيّة في عهد الأمويّين. لا شكّ أنها كانت قائمة على نحو مدارس الرُّها ونصيبين والحيرة وجند يسابور. وكانت لغات التعليم فيها اليونانيّة والسريانيّة. وقد عمل كثيراً الكاتوليكوس النسطوريّ فيتيون على نشر المدارس في عهد الأمويّين، »فأسس مدرسة في مركزه الأسقفي، واقتفى أثره سائر الأساقفة وأسّسوا مدارس وكنائس«. وعلى الرغم من قيام هذه المدارس فقد آثرت الأسر الغنيّة أن تعهد إلى معلمين خصوصيّين بتربية أولادها وتثقيفهم. وقد اختار سرجون معلماً لابنه - بحسب شهادة ميخائيل الراهب ومن أخذ عنه - أسيراً مسيحيّاً من جزيرة صقليّة اسمه قزما. فقد درّس هذا الصقلي تلميذه اللامع مراحل العلوم المعروفة آنئذ كلها، في مدة قصيرة.

قزما الصقلّي أستاذ يوحنا

وكان قزما رجلاً كاملاً طويل الباع في العلوم، وصل إلى دمشق مع فريق من الأسرى المعدّين للبيع، وقد ألقى القراصنة[23] عليهم القبض. فيقطعون رأس كلّ أسير لا يباع. وكان المسيحيون المعدّون للإعدام ينطرحون على قدمي قزما الراهب الفيلسوف، قبل ذهابهم إلى الموت، ويتوسلون إليه أن يلتمس لهم الرحمة الإلهيّة لينالوا نعمة الصبر في المحن والمغفرة ساعة الموت. فدهش القراصنة من مظاهر الإجلال هذه وتقدّموا من قزما وسألوه: »هل أنت بطريرك النصارى؟«.

فأجابهم: »لست بطريركاً ولا رئيساً بل راهب حقير فيلسوف«.

وفيما هو يتكلّم انهملت الدموع غزيرة من مقلتيه. وجاء في هذه الأثناء سرجون والد يوحنا ليفتدي، جرياً على عادته السخيّة، بعض هؤلاء المنكودي الحظ. فشاهد ما جرى. فدنا من الأسير واستفسر منه عن سبب بكائه:

»ماذا يبكيك أيها الإنسان، وزيُّك هذا ينبئ عن زهدك في دنياك«.

فأجابه الأسير: »ليس بكائي على حياة الدنيا ونكدها وكثرة تلوّنها، وجزيل أحزانها، بل تحسري على العلوم التي تعلّمتُها من صغر سني وتعبت فيها طول عمري وما تمتّعت بها في وقت من زماني ولا رزقت أن أعلمها لمن يترحم عليّ بعد وفاتي«.

فسأله ابن منصور: »وإلى ماذا بلغت من العلوم؟«

»قد درستها كلها وحفظتها بأسرها إذ لم يخفَ عني شيء منها«.

لمّا سمع سرجون هذا الكلام، ذهب إلى الخليفة وطلب إليه أن يضع بين يديه مصير هذا الراهب. فنزل الخليفة عند مطلبه. فأتى سرجون بالأسير إلى قصره وآساه وقال له: »لست أنت الآن عندي مملوكاً، بل حراً لوجه الله، معتوقاً، وهأنذا أوسطك منزلي وأشركك في مالي وممتلكاتي وأساويك بنفسي في عيشي ومشربي، بل أختار منك أن تعلّم ولدي الجسماني يوحنا

---

[23] لست أدري لم أسمى المؤلف هؤلاء الناس بالقراصنة، والعرب والمسلمون لم يعرفوا القرصنة، وحتى الاسم نفسه القرصان هو كلمة يونانية، إيطالية فرنسية، ولكن العربية لم تعرفها حتى وقت متأخر.

إلى جانب ابني الروحاني اليتيم من والديه قزما فهو ابني بالتبني، لأن الأورشليمي علمك هذا الذي ذكرته لي. فأجابه قزما: »سمعاً وطاعة لأمرك، يا سيّدي«.

لقد أنكر بعض الكتبة، على غير حق، صحّة هذه الرواية بكاملها. لا غرو أن يكون فيها بعض المبالغات والتخيّلات الجامحة في التفاصيل والإخراج، إلا أن جوهرها صحيح. فليس من المستبعد أن يكون راهب صقلّي مثقّف أسره القراصنة وأتوا به إلى دمشق فافتداه سرجون، وعهد إليه بتثقيف ابنه وتربيته. ألم يطلعنا تيوفانس على هجوم العرب على جزيرة صقلّية سنة 655، وأن أسرى كثيرين منهم استوطنوا مدينة دمشق؟ وفي سنة 669 هاجم أسطول عربيّ مدينة سيراكوزة في صقلّية ونهبها.

تلقى يوحنا تربيته وثقافته مع أخيه بالتبنّي المسمّى قزما أيضاً. وهو أورشليميّ المحتد، وقد تيتّم باكراً، فتبنّاه سرجون وشارك يوحنا حياته العائلية والتربويّة. وتفسّر لنا هذه الحياة التربويّة والثقافية المشتركة تلك الروابط الحميمة التي جمعت في ما بعد هذين القديسَّين حتى بعد اعتلاء قزما سدّة مايوما.

ثقافة يوحنا الدمشقيّ

تثقّف يوحنا الدمشقيّ ثقافة عالية متقنة. فدرس خصوصاً الفلسفة اليونانيّة واستشهد بها في كتاباته وطوّعها لإيضاح العقائد المسيحيّة. وقد وضع شوفالييه في كتابه لائحة بأسماء المؤلفين الذين استشهد بهم ملفاننا القدّيس، فكان للفلاسفة اليونان القسط الأوفر.

وقد لبثت اللغة اليونانية لغة الإدارة والأشراف المسيحيّين، واحتفظت بأهميّتها فأقبل على درسها أولاد الأسر.

وأكد ميخائيل الراهب أن يوحنا تعمّق في درس الكتب المقدّسة، إلاّ أنه، بحسب اعتقادنا، لم يجعل منها درسه المفضّل، إذ لم يكن في الحسبان انتحاله الحياة الكهنوتية، ولا سيمّا حياة الانعزال في دير. لقد أعدّه والده ليقوم بالمهام التي قامت بها الأسرة منذ سنين طويلة. وأدرك سرجون أن المسلمين لن يتحمّلوا طويلاً حالة النقص الثقافي التي يعيشونها، وأنهم سيفرضون عاجلاً أم آجلاً لغتهم العربيّة في المعاملات الإداريّة. وسوف يتحقّق بدون إبطاء ما توقعه،

وسيكون هو أول الضحايا. ولذا، اضطرّ إلى أن يضيف إلى منهج أولاد الأسر الدراسيّ، ذي الطابع الثقافيّ اليونانيّ، المنهج المعوّل عليه في الأوساط الأرستقراطيّة الإسلاميّة في ذلك العصر.

الثقافة في عهد الأمويّين

لم يعرف الإسلام قبل القرن الرابع الهجريّ معاهد كبرى تعنى بالثقافة العالية بحسب شهادة المقريزي. وكانت التربية الثقافيّة هاجس بني أميّة أكثر العرب ثقافة. ولاحقهم هذا الهاجس قبل احتكاكهم بالشعوب المسيحيّة المثقّفة بثقافة الإمبراطوريّة البيزنطيّة الرفيعة. ولما استوطنوا الديار السوريّة زال عنهم هذا الاهتمام، وأخذ المسلمون الأولون يتقلّدون ثقافة الشعوب المغلوبة ويتتلمذون على يدها. فيسهر على تنشئة الأولاد، مربّون يُنتقون بالأفضليّة بين المسيحيّين فيوزّع أهل الذمّة على تلامذتهم ما اكتنزوا من علوم. أما ما تبقى من العلوم فيستقونه من الرواة أو النسَّابين. وقد حفظ لنا المؤرخون أسماء مربّين كثيرين للأمراء الأمويّين. فكان الخلفاء أنفسهم يحضرون دروس المربّي مراراً، ويتفادون التدخّل حتى إذا اضطرّ المعلم إلى أن يعاقب تلميذه بقسوة، ويبذلون جهدهم أحياناً لتزويد المربي »برؤوس أقلام« المادة المعدّة للدرس، وهي الأشعار عادة.

وقد وردت في عهد الوليد الأول (668 / 715م) حلقة الفنون السبعة الحرّة في منهج تهذيب الأمراء، وكان للشعر المقام الأول لاعتباره مدرسة الأخلاق العالية والمشاعر النبيلة. أما النثر فلا وجود له. وقد تكوّنت آنئذ بعض المجموعات الشعريّة أو الدواوين المخطوطة، تفرّدت عن سواها، يتناقلها الرواة بانتظام. ويحكى عن زياد ابن أبيه أنه أهمل درس الشعر في تثقيف أولاده. فلامه معاوية لأنه حبس عن أولاده مصدر المشاعر المرهفة والعواطف السخيّة النبيلة، على حدّ رأي معاوية. »وقد أوصى الخلفاء الأمويّون مربّي أولادهم أن يشدّدوا على درس الأمثال والقصائد الرثائيّة التي تحمل على التشبه بالأجداد، وعلى الحِكم الأدبية المألوفة عند بعض شعراء العرب، وأن يهملوا شعر الهجاء والتشبيب والخمريّات«.

وقد شمل منهج تثقيف الأمراء درس القرآن ولربّما التفسير، ويلي التاريخ. وهو يقتصر على الحروب (الأيام) وأنساب العائلات والقبائل. وقد اشتهر بهذا الفنّ عُبيد بن شريّة الجُرهُميّ

(نحو 686) ودغفل، وعلّما يزيداً مبادئ علم الأنساب. وكان النَسّاب حمّاد الراوية يتردّد على بلاط الأمويين فيغدقون عليه الهبات والمنن.

ويضاف إلى هذه الدروس التي تفترض معرفة الكتابة والقراءة الرياضة البدنية التي تصيّر الأمير فارساً كاملاً.

لم يفصل المسلمين عن المسيحيّين من أصل عربي أيّة روح تفرقة أو تحزّب حتى عهد المروانيّين الأولين. وقد حفظ التاريخ اسم مسيحيّات عديدات تزوجن من مسلمين واحتفظن بحريّة ممارسة دينهنّ. وأخبرنا يعقوب الرهاويّ أن إكليريكيّين قاموا بمهمّة التعليم والتهذيب في عائلات الأمراء الإسلامية. ويقال إن يزيداً نفسه وكَلَ أمر تثقيف ابنه خالد إلى الراهب المسيحيّ مريانس، وإن عبد الملك عهد إلى أثناسيوس الرهاويّ المهمة نفسها.

إن ميل معاوية إلى المسيحيّين وعشرة ابنه المسيحيّة تحملاننا على الاعتقاد أن يزيداً وليّ العهد ويوحنّا بن سرجون وزير الماليّة نهلا ثقافة مشتركة في بعض الموادّ. وهكذا استفاد يزيد من تعليم أساتذة الدمشقيّ واقتبس عنهم الثقافة العلميّة التي جعلت التقليد يلقّبه بالمهندس. أمّا يوحنا فكان يتحسس الشعر ويتذوّقه، وتهتزّ مشاعره لدى احتكاكه بشعراء الصحراء وقد تأثرت بعض تآليفه بهذا الاحتكاك ولا سيّما أناشيده وقوانينه. وقد اكتسب من تربيته الثقافيّة المشتركة مع يزيد معرفة القرآن والديانة الإسلامية وقد برهن عن اطلاعه عليها في جدله الكتابيّ مع الإسلام.

فتوّة يوحنا

لقد نشأ يوحنا ويزيد معاً وتعلّق أحدهما بالآخر. وعند انعتاقهما من قسر المربّي، كانا يتردّدان تارةً إلى قصر سرجون في بستان القطّ، وتارة إلى أحد الأماكن المحبَّبة إلى يزيد، إلى قرى ضاحية دمشق الخلاّبة: دير مرّان، جلّق (الكسوة) ماطرون، وتارةً إلى بيت الراس، ولا سيّما إلى البادية حيث كانا يطلقان العنان لتسليات حفظ لنا المؤرخون المسلمون ذكرها.

إن ما لدينا من سيَر القديس الدمشقيّ لا ترشح لنا شيئاً عن سني حداثته. فقد مرّ مؤرخو سيرته بتلك المرحلة مرور الكرام، ولم يتركوا لنا ما نستشف منه حياة صخب طائشة، فيما

المصادر الإسلامية لا تخلو من تفاصيل مفيدة تصدم تصوّراتنا المسبقة عن حياة قديسنا. نتوهّم أنه وُلد في القداسة وجُبل بالفضائل والنعم منذ صغره، وننسى أنه بشر، وله من العيوب ما لغيره من البشر. لا نجد فيه سوى الراهب المتنسّك المتقشّف، والمنشد المرهف الشعور، والعدوّ اللدود لمحطّمي الإيقونات، والمدافع الجريء عن الإيمان القويم. ننسى أنه تربّى في الترف والعزّ وعاش حياة الدمشقيّين الأثرياء السهلة، وأنه كان من روّاد البلاط الأموي، ونديم يزيد، أكثر السفيانيّين طيشاً، وصديقه. وإننا لنجد أثراً لهذه الحياة الطائشة في هذا المقطع من حديثه الأول عن الإيقونات إذ يستهلّ يوحنّا كلامه قائلاً إنه من الأفضل له أن يصمت ويقدّم لله كفارة عن خطاياه السابقة.

حياة البلاط الأموي

لقد كانت حياة البلاط في عهد الخلفاء الأمويّين الأولين خالية من التصنّع والبذخ والتشريفات التي سادت في ما بعد حياة البلاط في بغداد. كان معاوية بسيطاً في ذوقه وتصرّفاته. وهذا لم يمنعه من الاستسلام إلى الحياة السهلة السعيدة التي اغتنت وتثبّتت عهداً بعد عهد. وما زال ذكرها حلماً خلاّباً وعبيراً نادراً مرهفاً يكتنف اسم الأمويّين.

يجلس الخليفة في قصر الخضراء المقرّ الملكيّ المغمور بالشمس والنور، والمعطَّر بعبير الأزهار المنعش المسكر، والمكتنف بحزام زاهٍ من الشجر الأخضر الباسق، حيث تصفر ريح الصحراء ويدمدم نسيم حرمون العليل. في هذا المقرّ يجلس الخليفة ليكون تحت تصرّف شعبه، يصغي إلى شكاواهم، ويحسم الخلافات. فتراه أحياناً يفصل بحكمه تارة بين يهود ومسيحيّين، وطوراً بين اليعاقبة والموارنة المتنازعين حول قضيّة عقائديّة.

أخبرنا المسعودي عن أيام الخليفة، وشهادته لا غبار عليها:

».. كان إذا صلّى الفجر، جلس للقاصّ حتى يفرغ من قصصه. ثم يدخل فيؤتى بمصحفه فيقرأ جزأه، ثم يدخل إلى منزله فيأمر وينهى، ثم يصلي أربع ركعات، ثم يخرج إلى مجلسه فيأذن لخاصة الخاصة فيحدثهم ويحدثونه، ويدخل عليه وزراؤه فيكلمونه بما يريدونه من يومهم، إلى العشي. ثم يؤتى بالغداء الأصغر وهو فضلة عشاء الليل من جدي بارد أو فرخ أو ما يشبهه، ثم

يتحدث طويلاً، ثم يدخل إلى منزله لما أراد، ثم يخرج فيقول: يا غلام! أخرج الكرسيّ، فيخرج إلى المسجد، فيوضع، فيسند ظهره إلى المقصورة، ويجلس على الكرسيّ، ويقوم الأحراس فيتقدّم إليه الضعيف والأعرابي والصبي والمرأة، ومن لا أحد له، فيقول ظُلمت، ويقول أعزوه، ويقول عُدِيَ عليّ، فيقول ابعثوا، ويقول صُنِعَ بي فيقول انظروا في أمره. حتى إذا لم يبق أحد دخل، فجلس على السرير، ثم يقول ائذنوا للناس على قدر منازلهم، ولا يشغلني أحد عن رد السلام، فيقال كيف أصبح أمير المؤمنين أطال الله بقاه.. ثم يؤتى بالغداء، ويحضر الكاتب فيقوم عند رأسه ويقدم الرجل فيقول له اجلس على المائدة، فيجلس؛ فيمدّ يده فيأكل بلقمتين أو ثلاثة، والكاتب يقرأ كتابه، فيأمر فيه بأمره..«.

وهكذا تتعاقب ساعات النهار وتتواصل الأعمال بدون أن ينسى صلواته. وعند المساء يعمل مع وزرائه مدة ساعات الليل الأولى، ويخصّص ثلث الليل للاطّلاع على تاريخ العرب والشعوب الأخرى والملوك الأجانب وسياستهم.

يزيد وحياة البلاط

لم تَرُق هذه الحياة الرسميّة لوريث الخلافة الشاب وقد ضاقت به طبيعته الغنيّة الموهوبة، وولعه بالشعر والموسيقى والصيد وحب الملذّات. فلم يقبل أن يمكث في قصر الخضراء حيث يراقبه والده مراقبة شديدة. ولم يأذن معاوية لابنه أن يُدخل الموسيقيّين إلى القصر مطلقاً. وإذا ما ظنّ يزيد أنه يخدع أباه فمضى للسهر متستراً بظلام الليل ومجاملة الأصدقاء، أطلعه والده بعد ذلك على أنه علم بما فعل. وقد حدث يوماً أن ضرب معاوية ابنه بالسوط لمّا فاجأه يحتسي الخمرة.

وكان ليزيد رفيقان حميمان يلازمانه، هما الأخطل ويوحنّا الدمشقيّ، ما عدا رفاق المناسبات كالشعراء والموسيقيّين نظير عبد الله بن جعفر، وابن أرطاة، وفضالة بن شريك، وعبد الله بن الزبير[24]، وقيس بن ذريح، شاعر الحبّ المعذَّب عند العرب وجرير نفسه، وأبو زُبيد الشاعر المسيحي. وقد أخبرنا أبو الفرج الأصفهاني »أنّ يزيداً بن معاوية، كان أول من أفسح المجال لحفلات الترويح عن النفس في القصر، مرحّباً بالموسيقيّين ومتحرّراً من كل قسر

[24] كذا أورده المؤلف وأنا أشك بدقة الاسم. خ.ذ

وقيد حتى أباح شرب الخمر. وكان مجالساه الاعتياديّان المولى سرجون المسيحيّ والأخطل«. والمقصود هنا بسرجون، لا والد الدمشقيّ بل يوحنا نفسه. لأن والده طعن في السنّ ولا يعقل أن يكون نديماً لأمير شابّ ابن خمس وثلاثين سنة، يشاركه الحفلات المجونيّة. ولو أرجأنا هذه الحفلات إلى عهد خلافة يزيد، لبقي فارق السنّ عظيماً بين والد يوحنا وندماء يزيد المرحين، بينما، على العكس من ذلك، كل شيء كان يجمع هذا الثلاثيّ المرح المستحبّ، المتجانس سنّاً وتذوّقاً للشعر والموسيقى، وكان يوحنا أصغرهم.

كانت الحوّارين الموقع المفضّل لدى يزيد ورفيقيه: فهناك قضى الأمير سني حداثته الأولى ما بين أخواله الكلّبيين. وكانت مسافات شاسعة موحشة تفصل الحوّارين عن دمشق، فتحجب جلبة الحفلات عن قصر الخضراء.

وحول سنة 670، حجّ يزيد إلى مكّة، نزولاً عند رغبة والده، وقد فرض عليه الحجَّ ليُبعده عن حفلاته وتسلياته ويقدّمه للعالم الإسلامي الذي سوف يحكمه. وقد صاحب الأمير في رحلته هذه الأخطل رفيقه الملازم كما يذكر كتاب الأغاني للأصفهاني، ولم يكن لهذه الرحلة أية صبغة حجّ وتوبة. هل رافق يوحنا صديقيه؟ الأمر غير مستبعد. لقد أوردت لنا قصة لاتينيّة غربيّة لحياة القديس، لا تخلو من الأساطير، أن الدمشقي رافق الأمير سيّده إلى مكة. إن التفاصيل التي تنقلها تجعلنا لا نثق بها، إلا أن الإفادة تسترعي الانتباه.

وزار يزيد والأخطل القدس الشريف. هل أراد الأمير أن يدلّل بهذا عن حبّه البنويّ لأمه ميسون المسيحيّة ولصديقه؟ هل رافقت ميسون ابنها؟ »نودّ أن نعرف، هل رافقته وهل قاموا جميعاً بزيارة الأماكن المقدَّسة المسيحيّة التي زارها معاوية لدى إعلانه خليفة في المدينة المقدسة؟«. هل انضمَّ يوحنا إليهم في هذه الزيارة؟ سؤال لا نستطيع الردّ عليه.

لقد كثر تغيّب يزيد وحاشيته الصغيرة في الحوّارين، لا سيّما في السنوات الأولى لخلافة معاوية، وقبل ذهاب الأمير لمحاصرة القسطنطينية. ثم قلّل من غيابه في ما بعد، خصوصاً بعد تسلّمه عرش الخلافة. لقد كان يزيد شاعراً ومحبّاً للموسيقى، ولبث نصير الشعراء والفنانين الذين كانت تضمّهم اجتماعات المرح في قصره أو في دارة سرجون. ولكن حاشى أن يُحطّ من قدر يزيد وحاشيته كما يفعل مؤرخون معادون للأمويّين.

تسامح الأمويّين

لقد سبق وتحدثنا عن تسامح الأمويّين وعن أوضاع المسيحيّين المحظيّة في عهد السفيانيّين. فلا عجب إذاً من تلك المودة التي كانت تربط ابن الخليفة بيوحنا أحد أصدقائه المسيحيّين. فلم ينتج عن ميول يزيد هذه نحو المسيحيين أي شعور بالتعصّب ولا سيّما في سورية. لقد بقيت المسيحيّة ديانة رفيعة الشأن، ديانة أهل الكتاب يتحمّل المسلمون تفوّقها الإداري والثقافي رغم عدم اعترافهم بها. ولا يغرب عن بالنا أن أخوال يزيد يؤلفون أرستقراطية قبيلة كَلْب المسيحيّة المتنفّذة جدّاً، وقد لجأ معاوية إليها في ظروفه الحرجة. فلم تعرقل علاقات ابنه هذه سياسته مطلقاً، لا بل أيّدتها. ولم تُلصق بالسفيانيّين تهمةُ عُشرة المسيحيّين وتفضيلهم على سكّان الحجاز المتعصّبين، إلا بعد مضي ربع قرن. ونضيف إلى هذه الأسباب السياسيّة سبباً آخر عاطفيّاً: »إننا نستبيح لنفسنا أن نرى في دم الأجداد المسيحيّين السائل في عروق يزيد سبباً لتلك المودّة الظاهرة في تصرّفات ابن ميسون نحو إخوة أنسبائه الكلبيّين في الدين، وفي تلك الذكرى الطيّبة الحميدة التي حفظها له الشعب المسيحيّ«.

بعد وفاة يزيد في الحوّارين

بعد وفاة يزيد، لم يظهر الأخطل في دمشق إلا نادراً وقد أصبح منشد الأمويّين، فكان يتردّد عادةً على بيت يوحنا الدمشقيّ. وجاء البلاط ذات يوم. »فسأله عبدُ الملك: »على من نزلت؟« فأجابه: »على كاتبك ابن سرجون«. ـ قال: »قاتلك الله، ما أعلمك بصالح المنازل. فما تريد أن يُنزلك؟« - قال: »درمَكٌ[25] من درْمَككُم هذا، ولحمٌ وخمرٌ من بيت رأس«. فضحك عبد الملك..«.

لا شك أن الأخطل أنشد مراراً أروع قصائده على خرير مياه النواقير التي لا تصمت لا الليل ولا النهار، وهو ممددٌ على ديوان نفيس فاخر، في دار مرصوفة بالفسيفساء والرخام الثمين. لو كان لدينا ديوان أشعاره كاملاً، لوجدنا أكثر من قصيدة تكريميّة لوزير المال وابنه يوحنا.

ولمّا بلغ الدمشقيّ أشدّه من الرجولة والنضوج ساعد والده سرجون في مهمته المرهقة،

[25] الدرمك: الدقيق الأبيض، الأغاني، 8، ص 290.

وشغل منصباً يليق بمقامه في دوائر خزانة الدولة.

الفصل الثالث

في خدمة الخِلافَة

منصب يوحنا الدمشقيّ في الإدارة الأمويّة

لقد شغل يوحنّا منصباً رفيعاً في الإدارة الأمويّة. هذا ما أثبته ميخائيل الراهب واضع سيرته، والتقليد الخاصّ بسير القدّيسين وبعض المؤرخين المسلمين، وهذا ما تفترضه أعمال المجمع المسكوني السابع. أما طبيعة هذا المنصب فمن الصعب تحديدها. وقد استعمل مخيائيل للدلالة عليها التعابير نفسها التي لجأ إليها المؤرخون العرب للدلالة على الوظيفة التي شغلها والده سرجون في بدء حكم معاوية: »وبعد ذلك توفي منصور (أي سرجون)، وصار ابنه كاتباً لأمير البلد، متقدّماً عنده، صاحب سرّه وجهره وأمره ونهيه«.

إذا صحّ أن سليمان بن سعيد مارس حقّاً إدارة الماليّة، فيكون الدمشقيّ شغل وظيفة أمين السرّ الخاص، أمين سرّ القيادة. أما المقريزي فقد استعمل تعبير المؤرخ الأنطاكي نفسه. ويبدو أن الكلمة التي استعملها البطريرك يوحنا ونقلتها الترجمة العربيّة **لعجائب العذراء** للدلالة على وظيفة الدمشقيّ، نستطيع أن نعبر عنها **بمستشار أول**، لكن فيها شيء من المبالغة وتنمّ عن شخص عديم الخبرة بأعراف الحكم الأموي الإداريّة. على كل حال، إننا نجهل معنى هذه الكلمة الدقيق. إن **كتاب التشريفات** يلقّب خليفة بغداد »بروتوسيمفُلُس«، كما أن مخطوطات البرديّ العربيّة اليونانيّة المصريّة تلقّب حاكم مصر العربي »سيمفُلُس«.

هذا، ولا نستطيع أن نتذرّع بصمت المسعوديّ وابن عبد ربّه وغيرهما عن ذكر وظيفة الدمشقيّ لننكر صحتها ووجودها. لقد أغفل هؤلاء الكتبة أسماء بعض أمناء سرّ الخليفة، وإثباتاً لذلك نقتصر على مثل واحد: لقد أغفل المسعوديّ سليمان بن سعد في سرد أسماء أمناء سرّ عبد الملك، واكتفى بذكره في عهد الوليد.

لن يكون إبعاد سرجون عن منصبه سبباً كافياً لإبعاد ابنه يوحنا، على الرغم من نزوة الكلام التي أوردها البلاذري على لسان سرجون، بعد مقابلة الخليفة عبد الملك، فقد لبث

موظفون مسيحيّون في خدمة الحكومة. وعلى كل حال، فإن الاعتراضات التي رفعها الحكام المسلمون من كل جهة قضت لصالح عودة المسيحيين وإبقائهم في مناصبهم. فكتبوا للخليفة: »لقد اختبرنا الموظفين المسلمين وتيقنّا من قلة نزاهتهم واستقامتهم«. وتكلّم الخليفة سليمان سنوات فيما بعد بالمعنى نفسه: »لم نستغنِ عنهم ساعة، إنهم لم يحتاجوا إلينا ساعة واحدة في سياستهم«.

ومهما يكن من أمر، كانت وظيفة يوحنا على جانب عظيم من الأهمية ومهمّة ثقة، وقد استطاع بعقله الواسع النيّر وقلبه المستقيم أن يقدّم للخلافة خدمات جلّى، في حين أن حدود البلاد الخاضعة لها أخذت تمتدّ أكثر فأكثر، وأجهزتها الإداريّة تتعدّد وتتعقّد.

تحوّل في معاملة المسيحيّين

كان يوحنا على منوال أبيه زعيم المسيحيّين يمثّلهم ويدافع عن حقوقهم لدى السلطات المدنيّة. وقد ساءت أوضاعهم في النصف الثاني من حكم عبد الملك، وتبدّلت استعدادات الخليفة الطيّبة. »فأسند أقاليم الشرق إلى قائدين عربيّين: فتسلّم الحجَّاج بلاد فارس وشبه الجزيرة العربية، ومحمد أخو الخليفة بلاد ما بين النهرين وأشور وأرمينيا وأفغانستان. وتميّز محمد باضطهاد المسيحيّين وتحمّسه للإسلام. فأعدم مُعيداً، زعيم العرب التغلبيّين، لأنه رفض اعتناق الدين الإسلامي، وأحرق للسبب عينه زعماء الأرمن في الكنيسة التي جمعهم فيها وقتل أنستاس بن أندراوس أسقف (؟) الرّها«.

وأبدى الحجّاج غيرة على الإسلام أيضاً، فمنع انتخاب الأساقفة. فبقيت كنيسة أرمينيا حتى وفاته بدون راعٍ، أيّ ثماني عشرة سنة. وتحمّل مسيحيّو مصر مضايقات جمّة.

وأمر الخليفة بتحطيم الصلبان، ومنع تربية الخنازير، فأغرق سورية بدم هذه الحيوانات.

أمّا أسباب هذا التحوّل في مسلك الخليفة فمجهول، ولعله تفاقم العداء بين المملكتين العربيّة والبيزنطيّة في عهد يوستنيانس الثاني (685 - 695 ثم 705 - 711).

أمّا الوليد الأول (705 - 715) فكان متصلّب الرأي ومستبدّاً في الحكم يتظاهر بالورع والحماس الدينيّ، خلافاً لمسلك أسلافه. كان »جباراً، عنيداً، ظلوماً، غشوماً« بحسب تعبير

المسعوديّ. فثبّت إصلاحات والده الإداريّة واستبدل نهائياً اللغة اليونانيّة باللغة العربيّة، وأنشأ نظاماً رسميّاً كله مضايقات للمسيحيّين. وفي خلال سنوات عبد الملك الأخيرة، نقضت الهدنة بين بيزنطة والخلافة وعادت الحرب إلى وطيسها بين المملكتين، وأمر الخليفة بإعدام كل الأسرى المسيحيّين من جيوش بيزنطة الموجودين في سورية، وحاول أن يكسب إلى الإسلام قبيلة تغلب.

وقد خلف سليمان أخاه (715 - 717) وفاقه تحمّساً للإسلام، وقد عمّت البلبلة والفوضى دوائر الحكومة، بسبب تسريح الموظفين المسيحيّين، فاضطرت السلطات إلى إعادتهم إلى مناصبهم وأشغالهم. وقد ذكر المسعوديّ والجهشياري ابن البطريق بين أمناء سرّ الخليفة.

وسنّ عمر الثاني[26] (717 - 720) إجراءات قاسية ضد المسيحيّين، فرفض شهادة المسيحيّ ضدّ المسلم، ومنع رفع الأصوات في الصلوات وضرب الناقوس، وشجّع الارتداد عن الدين المسيحيّ بالإعفاء من الضرائب الشخصيّة (خراج الأعناق). وقد حفظ لنا أبو يوسف رسالة وجّهها الخليفة إلى حاكم أحد الأقاليم هذا نصّها:

»عليك أن تحطّم الصلبان كلها. المعروضة على الملأ أو أن تمحوها بدون استثناء. محظور على المسيحي واليهوديّ أن يستعمل السرج بل الجلّ. وكذلك محظور على النساء المسيحيّات استعمال الرِحالة (سرج النساء) بل الجلّ. عليك أن تعطي أوامر إيجابيّة بهذا الصدد وأن تمنع مسيحيّي إقليمك أن يلبسوا الجلابيب أو الألبسة الحريرية أو الأقمشة الناعمة. وقد بلغني أن مسيحيّين كثيرين عندك استرجعوا لبس العمامة، ولا يشدّون وسطهم بزنار، وشعر رؤوسهم كثّ لا يحلقونه. بحياتي! إذا صحّت المعلومات التي وردت إليّ، تكون ملوماً بضعف وتواطؤ، لأنهم لن يقدموا على ما يفعلون ما لم يطمئنوا بالاً من جهتك. خذ علماً بكلّ ما منعته وضع حدّاً لكل مخالفة. سلام!«.

وقد سال الدم مدراراً من جديد، ولم يخَفِ الشهداء من الاعتراف بدينهم وإيمانهم.

---

[26] ابن عبد العزيز.

موقف القديس يوحنّا الدمشقيّ

لقد وقف الدمشقيّ عاجزاً حيال هذه الإجراءات التعسّفيّة المؤلمة. وشلّ نفوذُ علماء المدينة العظيم المسيطر على عُمر نفوذ الدمشقي المشيع للسلام والذي قد يؤثر على الخليفة. لأن عمر الثاني لم يكن عنيفاً ووحشيّ الطباع، وإن الإجراءات التي اتخذها ضدّ المسيحيّين لم تكن وليدة التعصّب الذميم بل صادرة عن أمانته لدينه. فقد أظهر استعداداً لينصف المسيحيّين الذين سلبهم الوليد، وعزم على إعادة كنيسة القديس يوحنا إليهم إلا أنه أمام استحالة القيام بعزمه هذا أعاد إليهم أربع كنائس صادرها المسلمون عند الفتح.

يوحنا ضحيّة الإجراءات التعسفيّة

على كلّ حال، لم يطل الأمر حتى ذهب يوحنا نفسه ضحيّة إجراءات العهد الجديد هذا. فقد سنّ الخليفة قانوناً يحظر فيه على المسيحيّين أن يتسلّموا وظائف رفيعة في الحكومة، ما لم يرتدّوا عن دينهم، ممّا أوجب على القديس أن يختار بين إيمانه ومنصبه، ولم يتردّد لحظة واحدة، بل استقال من وظيفته ووزّع أمواله على المحتاجين والفقراء وابتعد إلى الأبد عن ذلك المحيط الذي يذكّره بأيام شبابه السعيدة وترف الحياة السهلة، وذهب وقرع باب دير القديس سابا، هذا الدير الذي استمال إليه النفوس السوريّة المشغوفة بالمثل الرهبانيّ الأعلى. وتقول أعمال المجمع المسكوني السابع:

»لقد ترك يوحنا كل شيء على منوال الإنجيليّ متى ليتبع المسيح، معتبراً عار المسيح ثروة تسمو على كنوز الجزيرة العربيّة. وفضّل أن يشارك شعب الله بالإساءة والإهانة على أن يتمتّع بملاذّ الخطيئة العابر«.

يوحنا في دير القديس سابا

ترك يوحنا وراءه آسفاً أهلاً وأصدقاء أعزاء على قلبه، وطائفة كان سندها وحاميها والمدافع عن حقوقها. وقد توقّع أن العاصفة الهوجاء التي ذهب ضحيّتها لن تهدأ برحيله. ولو

أراد الإصغاء إلى شجاعته فقط لبقي بالقرب من مواطنيه يساندهم بمثَله وفضائله. إلاّ أن صوتاً داخليّاً كان يناديه إلى مكان آخر، إلى ميدان عمل أوسع من منطقة دمشق. لقد تراكمت غيوم سوداء في سماء القسطنطينيّة وذرّت بدعة محطّمي الإيقونات قرنها، فكان لا بدّ لكنيسة الشرق من لاهوتيّ قدير شهير يدافع عن الإيمان القويم المضطهَد، وعن أساقفته الأمناء المنفيّين المعذّبين: وكان على الدمشقيّ أن يستعد بالصلاة والتأمّل والدرس قبل النزول إلى حلبة الدفاع والصراع المقدّس. لو بقي في العالم لما تركت له هموم الحياة الدنيا ومتطلباتها حريّة التخصّص للنضال ضد أعداء الكنيسة.

وخلف عُمَر يزيد الثاني (720 ـ 724) الغريب الأطوار. فإنه مع عطفه على اليعاقبة ومساندة بطريركهم الياس، كان ميّالاً لبدعة محطّمي الإيقونات. وقد أصدر مرسوماً بتحطيم الصور والصلبان في الكنائس، ودفعه إلى عمله هذا يهوديّ من مدينة اللاذقية تنبأ له أن خلافته تدوم أربعين سنة إن أباد الإيقونات والصلبان من المعابد. وما كاد ينفّذ هذا المرسوم الجائر حتى داهمت المنية هذا العاهل الأموي. وقد خرق شروط الاتفاق لدى الفتح إذ أثقل كاهل الرهبان والكنائس بالضرائب. وقد اتخذ إجراءات صارمة لإرغام العصاة والعاجزين عن الدفع، منها السجن لا بل التعذيب والتشهير على الخازوق وصبّ الزيت المغلي على الرأس.

سارع هشام (724 ـ 743)، خلفُ يزيد الثاني، إلى إلغاء إجراءات أخيه التعسّفيّة وعاد إلى سياسة السفيانيّين القديمة بما أظهر من الاعتبار للطقوس المسيحيّة. فكان يحبّ، وهو منعزل في قصره، سماع صلوات المسيحيّين وقراءاتهم في أعيادهم الدينيّة، المقامة في الكنيسة الملاصقة للقصر، ويأنس بمحادثة بطريركهم (أثناسيوس اليعقوبي) مردّداً له: »أشعر بانشراح الصدر عندما تباشرون بتلاوة صلواتكم الليليّة، حتى إني أنسى هموم الحكم كلّها ولا أتأخر عن الاستمتاع بنوم هادئ عذب مجدّد للقوى«. كان هشام (690 ـ 743) يحب البطريرك ويجود بسخاء على كنيسته.

شغر الكرسيّ البطريركيّ الأنطاكي أربعين سنة، (من 702 إلى 742) وأدار شؤون البطريركيّة على ما يبدو متروبوليت صور. وفي سنة 742 أذِن الخليفة بسدّ الفراغ شريطة أن يقيم البطريرك في أنطاكية. وكان المنتخب اسطفانس الثالث راهباً سوريّاً، أليف الخليفة.

على الرغم من رحابة صدر هشام وتسامحه الديني، نفى إلى الصحراء سنة 734 تيودورس عمّ القديس الدمشقيّ. إننا نجهل الدافع لهذا الإجراء، فقد يكون لسبب غير ديني.

الآداب والعلوم في عصر الأمويّين

لم تشجّع عقود السنوات الأولى لخلافة الأمويّين تفتّح العلوم والفنون وانتشارها. فكان على الخلفاء أن يدعموا الحروب الخارجيّة، ويقمعوا الثورات، ويمارسوا الأعمال الدبلوماسية، ويوزّعوا الهبات، ويكتشفوا الحكّام الموهوبين القادرين، ويكتسبوهم، ويهدّئوا منافسات القبائل، ويحوزوا بالرفق على الرضى بجعل السلطة وراثيّة، ممّا يتنافى وميول العرب وعاداتهم. كل هذا استرعى في آنٍ واحد انتباه الأمويين الأولين ونشاطهم الدائب.

لقد افتتح مجيء السفيانيّين مرحلة انتقال قامت فيها عناصر متناقضة وميول متباينة، وتأجّجت فيها أهواء مكبوتة وأخذت تظهر أفكار ما زالت في مهدها، وتعاليم في طور نموّها، فلم ينعم برعاية الخلفاء إلاّ الشعر والخطابة. أمّا الشعر ـ وقد اعتبروه أداة الحكم ـ فقد نال حظوة معاوية وخلفائه. وأمّا الخطابة فكان لها دائماً المقام الأول في الحياة الدينيّة وحياة الإسلام السياسيّة. هذا »وإنّ تأسيس المدن وفّر للخطباء جمهرة متزاحمة من المستمعين، سهلة المنال والتأثير«. وتشمل صلاة الجمعة الرسميّة خطاباً يفرضه التقليد على الرئيس أي الملك أو من ينوب عنه. وهذه كانت طريقة الأمويين المستمرّة، بالإضافة إلى حكّام الأقاليم، فيتوّجهون إلى شعبهم يوم الجمعة وأيام الأعياد الكبرى أو في بعض المناسبات المهمّة، على نحو تنصيب حاكم جديد أو في بدء صعوبات أو ثورات. أمّا القصاصون ـ وقد ألّفوا نوعاً من اتّحاد الوعّاظ الشعبيّين أو الرواة المتجوّلين وهم غالباً أتقياء جدّاً ـ فيتملقون ميل الشعب إلى الخوارق ويحدّثونه عن »أعمال« الله.

لم تلقَ الحركة الفلسفيّة أو الدينيّة أيّ دعم أو تنشيط من قبل السلطات القائمة. وقد فاق بنو العباس في هذا المضمار الخلفاء الأمويّين. إلاّ أنّ الاحتكاك بمسيحيّي سوريّة المثقّفين ثقافة يونانية أو سريانية والحائزين على فلسفة كاملة ومتوسّعة جعل المسلمين يتعرّفون على ثقافة ليس للشعر فيها المقام الأول، إن لم نقل الوحيد. أمّا المعلّمون المسيحيّون الموكول إليهم تثقيف أولاد الأشراف الأمويّين وتهذيبهم فقد علّموا تلاميذهم نظريّات أرسطو وتجريده »المشائيّ«، أو العلوم الشائعة في مدارس الرّها أو جنديسابور. لم تحفظ المصنّفات من أسمائهم إلا القليل، منها خالد بن يزيد وقد تعاطي الطبّ والكيمياء. وهذا لا يعني أن معاوية الثاني ابن يزيد تفرّد في

تعاطي هذه المواد. لقد اجتهد غيره أن يأخذ عن المسيحيّين ما عجز الحجاز عن تلقينهم إياه.

وأخيراً، فإن الاحتكاك اليومي والمسالم للديانتين المسيحيّة والإسلامية المتعارضتين من أوجه كثيرة، قد حمل ذوي الألباب المفكّرة من كلا الطرفين على طرح أسئلة عديدة، نتج عنها نقاش. فطبّق مفكّرو الإسلام التحليل العقليّ على محتوى القرآن العقائديّ وعلى التقاليد، وتوقفوا خصوصاً عند بعض القضايا اللاهوتيّة، مثل حريّة الإنسان وجوهر الله وصفاته.

دور الدمشقيّ في مناصرة الأدب والفن والفلسفة

لم تفتقر مدينة مهمّة مثل دمشق إلى أندية أدبيّة. فإن يوحنا الدمشقيّ الذي أضاف إلى مقامه الاجتماعيّ السامي الثروة والثقافة، قد فتح أبواب قصره، لا للشعراء والموسيقيّين فحسب، بل لجميع من يهتمّ بقضايا الفلسفة والدين. فهو سليل أسرة سوريّة عربيّة ثقافتها يونانيّة، وموظف كبير عند الخلفاء، قد جمع حوله نخبة الاتجاهَين المتعارضَين قبل أن يتشبّعا من حقيقتهما. ولم يقتصر دور الدمشقيّ على مناصرة الأدب والفن، ولم يلجأ إلى الحضور الصامت، بل أثّر تأثيراً حقيقيّاً في محيطه، وشرّبه فكرته العميقة الثابتة لاحتكاكها بخير المصادر، ولم يطْفُ على النقاش أية فكرة هداية إلى إحدى الديانتين، بل آل إلى إيضاح النقط الغامضة من كلتا الديانتين.

إن تفاسير القرآن بشأن حريّة الإنسان وقضاء الله الأبديّ ولّدت في العقول الإسلاميّة الرصينة المتروّية التردّد والشكّ، وفتحت باباً واسعاً للطعن بالمسيحيّين الذين صانتهم عقيدتهم عن حريّة الإنسان وسابق العلم الإلهيّ من المبالغات التي يقود إليها المذهب الفلسفيّ الإسلاميّ التقليديّ!!

وقد كتب يوحنّا الدمشقيّ في ما بعد: »يعلم الله مسبقاً بكل أعمالنا لكنه لن يحدّدها«، وسبر غور المشاكل الصعبة الناجمة عن »العلم الإلهيّ« وعلاقاته بحريّة الإنسان، وأثّر بدون شك تأثيراً عظيماً في مسلمي محيطه، أولئك الذين لم تجد عقولهم المفكّرة راحة في التعليم الإسلامي التقليديّ.

هل كان ليوحنا ضلع في نشأة الحركة القدَريّة؟ أجل، لم يكن غريباً عنها. لقد ظهر القدَريّون الأولون في سورية، بحسب العرف العام. وكان معاوية بن يزيد الأول صديق الدمشقيّ

قدَرياً، بحسب شهادة ابن العبري. وقد شرح يوحنا في جدله مع المسلمين الحجج التي تسلّح بها القدَريّون في ما بعد، بحسب رأي بيكر. إنها أسباب كافية تدفعنا إلى الاعتقاد أن الدمشقيّ أثّر في أقدم نزاع عقائدي قام في حضن الإسلام، على حسب تعبير كولدزيهر.

إن العقيدة القدريّة نظريّة ميتافيزيقيّة في جوهرها، وقد عُدَّت مع ذلك حركة تمرّد على السلطة تهدّد أمن الدولة. فاضطهد الخليفة هشام أعضاءها وأعدم غَيلان الدمشقيّ زعيمها. وكان يوحنا قد غادر آنئذ دمشق، فتتبّع من دير القديس سابا اضطهاد من كان لهم الملقّن والمعلّم.

وقد امتدّ نفوذ الدمشقيّ إلى نقاط أخرى في العقيدة الإسلامية، تسلّح بها المعتزلون في ما بعد، وما البحث الذي كتبه الدمشقيّ في دير القديس سابا عن الإسلام، على شكل حوار، سوى صدى، بحسب رأينا، لتلك المناقشات التي أدارها يوحنا مع ضيوفه المسلمين المجتمعين في قصر بستان القطّ.

الفصل الرابع

الراهِب في دير القدّيس سَابا

دير القدّيس سابا

الإنسان يتبدّل أكثر من الأشياء. إن الدير الذي قضى يوحنا فيه أكثر من ثلاثين سنة من حياته لا يختلف كثيراً عن الدير الذي يراه السائح اليوم. إنه معقل حصين حقيقيّ معلّق على منحدرات وادي قدرون الجافّ على الدوام. فيبدو الدير أمامك مع مبانيه الغريبة المنبسطة للشمس الطالعة، والمتضرّسة تضرّس الأرض، حتى إن الناظر إليه من علُ لا يميّزه عمّا حوله. يشرف برج الحارس على الوضع ويتحكّم به. إنه الملجأ الأخير لهذه المدينة الرهبانيّة، مصدر إشعاع حقيقي في هذه الصحراء الموحشة. تنحدر أسواره في خط مستقيم إلى وادي قدرون، وترتفع في أسفله إلى علوّ يتحدّى تسلّق البدو. أمّا أسواره الجانبيّة – وهي أقلّ ارتفاعاً – فتحميها انحدارات الأرض. ولدى أول نظرة لا يميّز المرء أيّ بناء داخل الدير، إنه مجموعة قبب بيضاء مختلطة، وسطوح تبهر النظر، وقراميد قرمزيّة، وشرفات مفتوحة، وأدراج مظلمة، وبيوت صغيرة سوداء مجمّعة ومكدّسة ومتشابكة ومعقّدة. فيعتاد النظر رويداً رويداً على هذا النور المبهر ترقص ندائفه العاجيّة فوق الوادي وتستقّر على الصخور وحُجَر الرهبان، فتمزج كلّ شيء لتجعل منه وحدة حجريّة موحشة.

وهنالك وراء مجموعة البناء المستخدمة كفندق والمنفصلة عن الدير يشاهد المرء برجاً آخر مربّعاً وضخماً كالبرج الأول منفصلاً عن خطّ التحصين، يدعى برج إفدوكيا. فلا اخضرار ولا شجر يضفي على مشهد تلك المنطقة الحجريّة مسحَة فرح وبهجة، ما خلا نخلة على منحدر الهاوية، تشدّها سلسلة ثقيلة، يداعب النسيم أغصانها، فتتأرجح أوراقها الصافية اللون، وتحدث حفيفاً يشبه صوت المروحة. لقد غرسها القديس سابا نفسه. فلا يتغيّر جذرها. أما ساقها فتتلاشى كل أربع مئة سنة ثم يتجدّد كعنقاء مغرب. تَمْرها لا نواة فيه.

لقد اجتذب الدير الشبيبة بقوة منذ تأسيسه، وأسرع إليه الطلاب من كل حدب وصوب. وفي أيام المؤسس نفسه، جاءه أرمن ينشدون الترهّب، فقبلهم القديس وخصّهم بمصلّى ينشدون

فيه تسابيح الرب بلغتهم الأرمنية وقد ألّفوا جماعة على حدة[27]. أما العنصر الرهبانيّ الرئيسيّ فيتكوّن من ملكيّين وفدوا إلى الدير من فلسطين وسورية، ومن يونانيّين أتوا من آسيا الصغرى. وفي القرن السادس نلاحظ وجود جماعة من السوريّين. ماذا عنى مؤرخو دير القديس سابا بكلمة »سوري«؟ لقد أشاروا بدون شكّ إلى الرهبان القادمين من أرياف سوريا وفلسطين ولا يعرفون إلا اللغة السريانيّة. وقد ورد فعلاً في أعمال شهداء دير القديس سابا أن راهباً أراد بحرارة تعلّم اللغة اليونانيّة، إلاّ أن صعوبة اللفظ ثبّطت عزيمته. ويبدو أن هؤلاء السوريّين اتبعوا طقوساً خاصّة بهم. ويفيدنا المؤرخون أنهم على منوال الأرمن كانوا ينشدون الفرض الإلهيّ والقداس حتى التقدمة في كنيستهم وبلغتهم ثم ينضمّون إلى اليونانيّين لمتابعة الذبيحة الإلهية وإتمامها[28].

لا بدّ من أن تكون اللغة العربيّة معروفة في الدير نظراً إلى علاقات الرهبان المتواصلة مع العرب الرحّل المحيطين به. ولم يخلُ الدير من عنصر عربيّ أصيل، إذ كان مسيحيون كثيرون في ما بين القبائل الضاربة خيامها في فلسطين. وعلى كل حال، يقول الأب فاييليه: »لا بدّ من أن تكون العربيّة اللغة المستعملة في الدير في القرن الثامن، كما تشير إلى ذلك بعض ملاحظات، أوردها لاونسيوس الدمشقيّ واضع حياة القديس أسطفانس السبائي، إذ قال مراراً: »كان اسطفانس يرد عليّ باليونانيّة«. إنها ملاحظة هامة لا ندركها لو كانت اليونانية لغة الدير العاديّة«، وقال في ظرف آخر: أراد اسطفانس أن يكشف أخطاء راهب فاستعمل اللغة اليونانيّة كي لا يفهمه الجميع.

*　　*　　*

---

[27] يخبرنا كيرلس السيتوبوليّ عن حادث طريف جرى في هذا الصدد:

أنشد الأرمن في اليوم الأول لإقامتهم في الدير نشيد التريصاجيون مضيفين إليه عبارة بطرس القصَّار الهرطوقيّة »الذي تألم من أجلنا«. فاستاء سابا من هذا الأمر إذ رأى الهرطقة تهدّد ديره. فقرّر أن يكون لليونانيّين وحدهم الحق في إنشاد هذه الترنيمة في المستقبل.

[28] اكتشف ديمتريافسكي (Dimitriewski) مخطوطاً في دير جبل سيناء يعود إلى القرن الثاني عشر أو الثالث عشر (رقمه 1096) ونشره. إنه يحوي قوانين دير مار سابا ونظامه اليومي. يعتقد هذا العالم أنه عثر على القانون القديم الذي تركه القديس سابا لخليفته، وفيه بكل تأكيد تعديلات لاحقة. ونجد فيه هذا البند:

»نظراً إلى الجدل والمشادّات الحاصلة بين اليونانيّين والسوريّين، فإن هؤلاء السوريّين غير أهل لأن يشغلوا المناصب العالية بل الوظائف الثانويّة، لا غير«.

كنا نأمل أن تمدّنا سيرة أسطفانس هذه بمعلومات جدّ مفيدة ومهمّة عن حالة الدير في القرن الثامن وعن إقامة يوحنا الدمشقيّ فيه. ولكن، يا للأسف، إنها ناقصة! فعلى أمل لأن يعيد إلينا اكتشافٌ غير منتظر هذه الوثيقة الثمينة، نلجأ إلى مصادر أخرى ترشدنا إلى معرفة الحياة الرهبانيّة الفلسطينيّة في القرن الثامن، وتبعث المحيط الذي عاش فيه يوحنا شطراً من حياته.

يوحنا وقزما في دير مار سابا

غادر يوحنا مسقط رأسه برفقة قزما أخيه بالتبنّي متّجهاً نحو القدس. فزارا الأماكن المقدّسة، ثم قصدا دير مار سابا. وقد سبقت الدمشقيّ شهرته إلى هذه الأماكن المنعزلة الموحشة. فقبل الرئيس بفرح وارتياح في عداد المبتدئين هذين الحاجّين الذائعي الصيت.

من هو الرئيس الذي استقبل يوحنا؟ لا تنبئنا سيَر القديس عن اسمه. إن آخر رئيس في القرن السابع جاءت على ذكره المصادر الرهبانيّة هو يوحنا رئيس الدير وقد وقّع سنة 649 على الرسالة الموجّهة ضدّ أتباع المشيئة الواحدة (المونوتيليّين). هل كان على قيد الحياة عندما جاء الدمشقيّ وقرع باب الدير؟.. هذا أمر مستبعد. وقد حدثتنا وثيقة أورشليميّة عن راهب اسمه دانيال ترأس هذا الدير في القرن الثامن ولم تحدّد تاريخ تسلّمه الوظيفة.

دعا رئيس الدير عدّة رهبان على التوالي، من ذوي المهابة والوقار وعرض عليهم أن يهتموا بإرشاد الوافدَين الجديدَين. فرفضوا كلّهم معتبرين أنهم غير أهل لأن يقودوا في طرق الكمال نفساً سامية مثل نفس يوحنا. أخيراً قَبِل راهب جليل بارّ وبسيط هذه المهمّة الدقيقة الخطيرة.

لما دخل يوحنا صومعة الشيخ الجليل بادر هذا إلى تلقينه منهج الحياة الجديدة وقال له:

»يا بني، أرغب إليك أن تُقصي عنك كل فكرة دنيويّة وكل تصرّف أرضيّ. اعمل ما تراني أعمله، ولا تتباهَ بعلومك. إن العلوم الرهبانيّة والنسكيّة لا تقلّ أهمية عنها، لا بل تعلوها مقاماً وفلسفة. أمِتْ ميولك المنحرفة وتصرّف ضدّ ما يرضيك، ولا تُقدِم على عمل بدون

موافقتي وطلب نصيحتي. لا تراسل أحداً. إنسَ العلوم البشرية التي تعلمتها كلّها، ولا تتحدَّث عنها مطلقاً«.

فأحنى يوحنا رأسه أمام مرشده وسجد احتراماً له، ووعد أن يحقّق نصائحه كلها.

قد يدور في خلد القارئ لدى مطالعة هذه الصفحة التي كتبها ميخائيل الراهب أن معلّمي الحياة الروحيّة في دير مارسايا أعداءٌ لكلّ علم. على أن الواقع يدحض هذا الظنّ. لم يحظَّر على الراهب أيُّ علم. لقد كان دَرسُ الكتاب المقدّس وتلاوتُه من عادات الدير المعتبرة، ويعرف النسّاك كلّهم تقريباًً قسماً من كتاب المزامير عن ظهر قلبهم. أجل إن هذا الدرس موجّه نحو الصلاة أكثر منه إلى المعرفة والثقافة. »لكنّ عدداً لا يستهان به من الرهبان ينصرف إلى الأعمال الرسولية. لقد اشتهر القديس مركيانس كخطيب. وكان جاورجيوس بطريرك أورشيلم سنة 799 رجل أدب وقداسة، والقديس تيوضوسيوس راهباً مكبّاً على الوعظ ومطالعة الكتب والأسفار الإلهيّة والتعمّق فيها. واشتهر القديس جراسيموس بمعارفه الروحيّة، ممّا يفترض تربية ثقافية جدّية..«. وقد جاء في سيرة أنطيوخوس الراهب ما يلي: »كتبتَ إليّ، أيها الأب الوقور إفسطاتيوس أنك تعاني كثيراً من تغيير مكان إقامتك.. إنه صعب عليك أن تنقل حِمل الكُتب الثقيل..«.

»إذا ما ألقى القديس اسطفانوس السابائي مواعظه، أخرج تلاميذه دفاترهم ليدوّنوا ما قاله القديس. هذا النشاط دليل ثقافة«؛ كما أن جبرائيلوس تعلّم في عزلته اللاتينيّة واليونانيّة والسريانيّة.

أجل، يؤمّ كثيرون الدير، وقد أتمّوا دراستهم وثقافتهم. ولكن قد يتثقّف البعض في الدير نفسه، على منوال القديس اسطفانس السابائي الذي جاء الدير وهو ابن عشر سنوات وقد نهل علومه كلّها في دير مار سابا. وقد عُهد إلى ميخائيل تثقيف الأخويَن الموسومَين دينيّاً وأدبيّاً. فلا يعتبر إذاً حديث معلّم يوحنا الروحيّ أمراً جازماً كي يتخلّى عن كل نشاط ثقافي، بل المقصود منه وضع يوحنا في جوّ الابتداء وتهيئته لحياته الجديدة. ألا تمنع أديرة الابتداء العصريّة طلابها عن درس العلوم العالميّة وحتى الكنسيّة، ما خلا درس مبادئ الزهد والتقشّف؟

قضى يوحنا ردحاً من الزمن تحت قيادة معلّمه الروحيّ. وخطر لهذا المعلم يوماً أن يمتحن فضيلة تلميذه وطاعته. فقال له: »يا ولدي الروحاني قد بلغني أن عملنا الذي هو الزنابيل

مطلوب في دمشق، وقد اجتمع عندنا منه شيء كثير، فقُمْ لتمضي إلى المدينة وتبيعها وتحضر ثمنها لاحتياجنا إليه في نفقتنا«. فحمّله بعضاً منها وألزمه أن يبيعها بضعف ثمنها. فلم يعترض يوحنا، بل ذهب إلى دمشق واخترق شوارعها حاملاً السلال، ولم يتيسّر له بيع واحدة منها لغلاء سعرها. فعرفه أخيراً أحد أجرائه القدماء وأشفق عليه واشترى منه السلال كلها بالسعر المتّفق عليه، وعاد يوحنا إلى الدير: »وعاد إلى معلمه وهو لابس إكليل الغلبة ظافراً بشيطان الكبرياء والعظمة«. ووضع المرشد طاعة المبتدئ على المحكّ مرّة أخرى، وإذا خرج من الامتحان الأول منتصراً، فلن يفوز في الامتحان الثاني. فقد حدث أن مات في الدير راهب شيخ جليل. وكان جار المعلم يوحنا الروحيّ، وله أخ راهب في مار سابا أيضاً، وقد استولى عليه حزن شديد. فلم يكفّ عن البكاء والنحيب كلّما تذكّر أخاه المتوفَّى. فقصد في أحد الأيام يوحنا وتوسّل إليه أن ينظم لأخيه الراحل مقطوعة شعريّة تسكّن أحزان الراهب الممتحَن بوفاة أخيه. فأجابه المبتدئ بورع: »إني أتوقّى لائمة الشيخ معلمي وما اشترطه عليّ في ابتداء رهبانيتي«. فأجاب الراهب: »إني ما أبوح بها ولن أقولها إلا لنفسي منفرداً، ولدى إلحاح الراهب، ظنّ يوحنا أنه يصغي إلى واجب المحبة إذا لبّى رغبة الراهب فصاغ له تلك الطروبارية الرائعة اللطيفة التي تتلى حتى اليوم في رتبة الجناز:

»في الحقيقة كلُّ ما في هذا العالم باطل، والعالَمُ أيضاً كالظلّ والمنام. وباطلاً يضطرب كلُّ ابن التراب كما يقول الكتاب. لأننا ولو ربحنا العالم. فلا بدّ أن نسكن القبر حيث الملوك والفقراء معاً. فلذلك أيها المسيح الإله أرح عبدك المتنقل بما أنك محبٌّ للبشر«.

وفيما كان يوحنا جادّاً في تلحين هذه الطروبارية فاجأه مرشده. »أهكذا تفي بوعدك يا بنيّ؟ هل طلبتُ منك أن تترنّم بدلاً من أن تبكي؟«. فحاول يوحنا أن يشرح لمرشده حالة الراهب جاره المفجوع، واعتذر عن فعله، ولكن لم يفلح بل طرده الشيخ المتصلّب من حضرته. فانصرف المبتدئ الحزين النادم ليبكي مخالفته. فتوسّط قدماء الدير لينالوا له الصفح والغفران من مرشده ويعود إلى مشاركته السكنَ في الصومعة. لكن الشيخ ظلّ متصلّباً. فعاودوا الكرّة والإلحاح لعلّه يلين ويصفح عن تلميذه. فقبل شريطة أن يقوم يوحنا بأمر غريب: »أن ينظّف هذا المبتدئ العاصي آبار مراحيض الدير كلّها. على هذا الشرط، وعليه وحده، أسمح له بالعودة إلى الصومعة ومشاركتي السكن فيها«. فاعترى القدماء الذهول من هذا القصاص! وانصرفوا والحزن والخجل يحزّ قلوبهم! حينئذ ذهب يوحنا إليهم وانحنى أمامهم وطلب إليهم أن يقوم بما

أمره به مرشده. فأبدوا له خيبتهم وصعوبة إقناع معلّمه الروحيّ وقالوا له: »إنه فرضَ قصاصاً غير معروف حتى الآن!«. فقال يوحنا بوداعة ولطف: »إنه لأمر سهل!« وللحال أخذ رفشاً وقفّة وباشر عمله في الصومعة المجاورة لصومعة معلمه. لمّا علم الشيخ إقبال يوحنا السريع على إنجاز هذا الامتحان المذلّ، ناداه وضمّه إلى صدره، وقبّل جبينه وعينيه، وقال له: »كفى، يا ابني، كفى! لقد أنجزت ما طلبتْه الطاعة منك وأكثر! عُدْ إلى صومعتك، فأهلاً وسهلاً بك!«.

فلم تحتمل العذراء طويلاً أن يعامل مقدِّسٌ لها على هذا الشكل، فظهرت في إحدى الليالي في الحلم للراهب الشيخ، ولامته على تصرّفه مع يوحنا، »لأنه سدّ منهل المياه الغزيرة العذبة والصافية. إن يوحنا معدّ ليزين كنائس الله وأعياد القديسين بأناشيده وأنغامه، وسيستسيغ المؤمنون عذوبة تآليفه. فأطلِق له الحريّة ليكتب ما يشاء، لأنّ الروح القدس يتكلم بفمه«. وعند الصباح اطّلع الراهب الشاب من معلّمه على ما جرى. فأفسح له المجال كي يكتب ما يريد، لأن الله يحبّ تآليفه. وقال له الشيخ: »افتح فمك وانطق بما يوحيه الروح القدس إليك. لقد منعتُك عن الكتابة بدافع الجهل والغباوة«. فأخذ يوحنا ينظم قانون القيامة. »إن شعلة نبوغه – وقد استدعاها الأمر الإلهي – أخذت تتعالى من المقرّ المظلم الذي حجبها فيه التواضع، لتنير بأشعتها ولمعانها كنيسة الشرق«.

لقد ارتأى بعض الكتبة أن هذه التفاصيل هي من عالم الأساطير، على أنه ليس من العدل التذرّع بمبالغات بعض التفاصيل المستبعد حدوثها لنرفض صحّة القصة بكاملها. »لقد قلّل البعض كثيراً من قيمة سيرة الدمشقي التي كتبها الراهب ميخائيل. فلو قارنّاها مع المصادر الأخرى، مع سير متوحّدي ذلك العصر وتلك المنطقة، ومع سنن تلك الحقبة والمؤرّخين العرب، لتبيّن لنا أن تفاصيل كثيرة قريبة إلى المعقول«.

لقد كان صنع السلال العمل اليدويّ الأكثر شيوعاً في الأديرة الفلسطينيّة. ومن المحتمل أن يكون الراهب الشيخ أرسل تلميذه المبتدئ ليبيع السلال التي اشتركا في صنعها، بغية إذلاله وتمرّسه في فضيلة التواضع. ومن المعقول أيضاً أن يفكر الراهب الشيخ بإرسال تلميذه إلى مدينة مجاورة، مثل أريحا أو القدس ليبيع فيها السلال بثمن أغلى. أمّا تحديد مدينة دمشق وحادث الخادم الذي عرف سيده القديم، فهما من الأمور المستبعدة والتي دُسّت لإظهار فضيلة القديس. ومن الجائز أيضاً أن يطرد راهبٌ غضوب معتز بسلطته ومتشبّث بها يوحنا، وكانت هذه السلطة نقيصة متفشّية آنئذٍ في الأوساط الإكليريكيّة. ولا يدهشنا القصاص الذي فرضه

الراهب الشيخ على تلميذه، إذ كان يمارس الرهبان المبتدئون – حتى في أيامنا – مثل هذه الأعمال في أديرة تدريبهم. وعلى الرغم من ظهور خوارق الأمور في الماضي أكثر من ايامنا الحاضرة، فلم يكن من الضروريّ تدخّل السماء لتفسير إقبال يوحنّا الدمشقيّ على نظم الأناشيد وتشجيعه على الكتابة. ولا بدّ من أن يكون في الدير عقول مثقفة. ولمعلم الابتداء السلطة في إيقاف يوحنا إلى حين عن تعاطي العلوم الخارجة عن نطاق تنشئته الروحيّة، ثم له أن يعود عن قراره لدى التأكد من فضيلة تلميذه.

سيامة يوحنا الكهنوتية – تاريخها

تخبرنا سيرة القديس أن يوحنا بطريرك أورشليم دعاه بعد سني الابتداء وسامه كاهناً رغم تمنّعه. وعند عودته إلى الدير انعكف على حياة نسك أشدّ وتقشّف متزايد، وانصرف إلى وضع تلك المؤلفات البليغة التي انتشرت في سائر أنحاء العالم.

ومن أهداف القديس سابا إقصاء رهبانه عن الكهنوت، لأنه بحسب قوله »يلعب برؤوسهم«. وقد تردّد هو نفسه طويلاً قبل قبوله سرّ الكهنوت. فلا عجب إذا ما ساور الدمشقي الخوف نفسه قبل انخراطه في سلك الكهنوت. وقد ساورت المخاوف نفسها قدّيسين آخرين كثيرين. لكن »لن يبقى النور طويلاً تحت المكيال«. لقد بلغت أصداء فضائل الدمشقيّ وعلمه مسمع بطريرك أورشليم، وتوقّع أن يجني منها الخير العميم لأبرشيته، فأمره أن يقبل السيامة الكهنوتية. فرضخ يوحنا، وهو الذي كان دائماً مثال الطاعة والانصياع لأوامر رؤسائه.

ارتقى يوحنا الخامس سدّة البطريركيّة الأورشليمية سنة 706. وقُتل في عهده سنة 723 ستون حاجّاً من مدينة عمورية، ومكث حتى سنة 727 بطريرك الكنائس الملكيّة الوحيد، وترأس أساقفة سورية وفلسطين ومصر الكاثوليكيّين، ثم قاوم بدعة محطّمي الأيقونات. وقد وجد في يوحنا الدمشقي خير نصير ومعبّر عن أفكاره وكلامه ضدّ البدعة الجديدة. مات سنة 735. أمّا يوحنا الدمشقيّ فلم يتلقّ علومه الكنسيّة في دمشق مسقط رأسه على يد قزما، خلافاً لما ورد في سيرة حياته، بل تلقّن العلوم الإلهيّة في دير مار سابا، وعلى الأرجح في أورشليم، وكان معلّمه البطريرك يوحنا نفسه. وقد أعلن الدمشقيّ في رسالته عن التريصاجيون أنه تلميذه وصديقه الحميم. كما أفاد في مجاهرته بإيمانه لدى سيامته الكهنوتية أن معلميه في العلوم المقدّسة كانوا رعاة الكنيسة.

متى سيم الدمشقي كاهناً؟ قبل نشأة بدعة محطّمي الإيقونات بكل تأكيد. لقد خطب يوحنا فعلاً يوم سيامته الكهنوتية أمام حشد غفير من المؤمنين، معلناً إيمانه القويم، ولم يأتِ على ذكر البدعة، ولم يلمّح مطلقاً إلى وجودها في بيانه عن العقيدة القويمة، لا سيما أنه أتى على ذكر البدع كلها التي قامت قبله وحتى في أيامه، وذكر أسماء مثيريها، فلو نال الكهنوت بعد 726 لجاء على ذكرها.

الفصل الخامس

الصِّراع مَع محطِّمي الإيقونات

المدّ العربي وتوقفه في الغرب وفي آسيا الصغرى

بينما كان الدمشقيّ يتدرّب على الحياة النسكيّة في مار سابا، ويقوم بمهمّة التعليم والوعظ، وقعت أحداث خطيرة زعزعت كيان العالم الشرقيّ وقلبته.

لقد بلغ الأمويّون نهر الأندوس شرقاً، وحملوا السلاح إلى ما بعد جبال البيرينيه غرباً، وقد ضمّ قتيبة قبلاً (712) بلاد ما وراء نهر اكسوس ووصل حتى فرغانة، واجتاح الصين الغربيّة، وبلغ قشغر سنة 714. وفيما أخذ الإسلام يترسّخ في وسط آسيا وينتشر في العالم الصيني، كان يقتحم من ناحية أخرى أوروبا الغربيّة ويحتلّ إرث ملوك القوط الغربيّين. وقد فتح سقوط طليطلة وسرقسطة سنة 712 الطريق أمام جيوش موسى بن نُصير فاستولت على بلاد الأرغون العليا ولاون وأستوريا وغليسيا، وعبرت جبال البيرينيه واستولت على مدينة كركسون سنة 725. واندفع عبد الرحمن الغامقي مغامراً نحو نهر اللوار، في شهر تشرين الأول سنة 732، والتقى شارل مرتيل بين مدينتي تور وبواتييه، فسقط مع العديدين من رجاله في المكان المسمّى »طريق الشهداء«. وهكذا، بعد هجوم رهيب توقف انتشار الإسلام في الغرب وبلغ حدّه الأقصى، وبدأت المقاومة المسيحيّة. وفي سنة 737 انتصر شارل مرتيل مرة أخرى على العرب قرب مدينة نربون على البير.

لقد بلغت أصداء هذا الصراع الجبّار بين مدنيَّتين دير مار سابا بدون شكّ، لأن العلاقات بين أديرة فلسطين وأديرة فرنسا لم تكن مقطوعة. على أن ما يهمّ مسيحيّي فلسطين بالأكثر هو الصراع القائم على أبواب القسطنطينية. وقد قاومت المسيحيّة في الشرق أيضاً، وانتهى حصار القسطنطينيّة الأخير بفشل ذريع. كتب المؤرخ الإنكليزي بوري عن القسطنطينيّة أنها »جادة أوروبا المسيحية«. ووصف أحداث سنة 718 أنها »تاريخ مسكونيّ«. وقارن المؤرخ اليوناني لمبروس هذه الأحداث بالحروب اليونانية الفارسية القديمة، وخلع على لاون الثالث لقب ملسياد القرون الوسطى اليونانية. وفي السنة عينها التي فشل فيها حصار المدينة، وقد خرجت المملكة

من أزمة طويلة، انتقل الحكم إلى يد لاون الثالث الأيصوريّ الحازمة. وسوف تنقلب الحالة إلى مصلحة البيزنطيّين. وبعد توقف الأمويين مدةً عن القتال، عادوا وهاجموا بلاد كبادوكيا والقفقاز، وكانوا، في كل صيف، يوجّهون حملات يدعمها غالباً أسطول بحريّ، يغزون أرياف آسيا الصغرى. وقد أعاد لاون تنظيم هذه الحدود. وفي سنة 739 تغلغل ابن الخليفة هشام إلى قلب بلاد فريجيا، فشهد بأم عينه القضاء على جيشه الأمامي المؤلف من عشرين ألف رجل، قرب أكروينون، فسجّلت هذه الكارثة فشل المطامع الأمويّة في هذه الناحية على الأقل.

صعوبات في المناطق التي احتلّها العرب

لقد توقّف مجهود العرب التوسّعي وواجه صعوبات جمّة في المناطق التي ضمّها منذ نصف قرن. فنشبت اضطرابات خطيرة في الأقاليم البعيدة سبّبتها سياسة العرب مع السكان الأصليين والمنتقلين إلى الإسلام. فقاموا في بلاد فارس كما في بلاد البربر يطالبون بالعدالة والمساواة في دفع الضرائب، تلك المساواة التي وعد بها الإسلام. وقد اتخذت بدعة الخوارج في أقاليم الغرب البعيدة شكل عصيان مدني؛ أما في الأقاليم القريبة فقد ضعف شأنها والتحفت بالعجز لا سيما بعد أن قمعها الحجّاج بحزم. إنما استمرّت تشغل العقول حتى إذا ما ضعفت السلطة المركزيّة عادت إلى الظهور.

إن اختيار دمشق عاصمة للبلاد جمع حول معاوية أشدّ الحماة أمانة للسلالة الأمويّة. أمّا التخّلي عن المدينة للإقامة في الصحراء فقد أثار استياء السوريّين ضدّ آخر المروانيّين. ولأول مرة منذ معاوية انقطع حبل الوفاق بين الأمويّين وسكان البلاد في عهد الوليد الثاني، ذلك الوفاق الذي استمدّ منه هؤلاء الأمراء القوّة لمجابهة أعنف العواصف. لقد افتقر آخر المروانيين إلى حلم مؤسّس السلالة الأمويّة ليحافظوا على التوازن بين القيسيّين واليمنيّين. ومنذ معركة مرج راهط، شمالي دمشق، تفاقم الحقد بين الفئتين وزالت سياسة المراعاة والتوفيق التي انتهجها عُمر الثاني. فاعتمد يزيد الثاني على القيسيّين دون سواهم تقريباً. وعمل هشام عكس هذه السياسة ثم عدل عنها. فانتقم اليمنيّون المبعَدون من خَلَفِه، وانضمّ القدَريون إلى اليمنيّين المستائين وقد اضطهدهم أيضاً الوليد الثاني. فتكاثر عددهم وكان على رأسهم المرواني يزيد بن الوليد الأول. فخرج المتمرّدون من دمشق ليفاجئوا الخليفة وهو يصطاد في ضواحي مشتّى. فهرب إلى

الشمال. فلحقوا به وقتلوه جنوبي تدمر في شهر نيسان 744.

وفيما كان التنافس على السلطة محصوراً ما بين قيسّين ويمنيّين، عاد واندلع حرباً أهلية طالت جُند سورية كلها. وعلى مثال دمشق التي عيّنت يزيد الثالث، انطلقت كل ولايات سورية وفلسطين هي أيضاً في تعيين خليفة لها. فأتت تلك المنازعات على وحدة البلاد. ونجح مروان الثاني[29] سنة 744 في الاستيلاء والسيطرة على دمشق.

إن هذا الجندي القديم الأسطوري الشكيمة والعزم قد شدّته ميوله إلى بلاد ما بين النهرين، حيث قضى القسم الأكبر من حياته، أكثر من ميله إلى سورية حيث كان يشعر بالغربة. فنقل عاصمته إلى حرّان، وتجاهل كلياً أهميّة هذا البلد السوري وموقعه الفريد الممتاز، ومكافأته على قرن من التضحية والإخلاص والقتال في سبيل السلالة الأمويّة. فجاهر بعمله هذا بالقطيعة بين السلالة والعالم السوري الذي ساندها منذ معاوية. فنشبت ثورات أخمدها مروان بهدم أهمّ المدن السوريّة.

وهكذا تكوّنت في الشرق تلك العاصفة التي سوف تقتلع الحكم الأموي وتقضي عليه. لقد انتصر مروان على كل عصيان، عصيان السوريّين وعصيان خوارج العراق وخوارج الجزيرة العربيّة. وبدت له أوسع الآمال مباحة. وفي هذا الوقت »وعلى غير انتظار، ظهر إلى الوجود أخصام مقلقون هم الخراسانيّون، تحت لواء العباسيّين الأَسْود«.

موقف الدمشقيّ من التوسع الإسلامي

لم يعد المسلمون ذلك الشعب العائش في حيّز ضيّق في شبه جزيرته، وأراد الإفلات منه ليستولي على مجال حيويّ أكبر[30]، وها هو بعد مئة سنة من انتشاره خارج الجزيرة العربيّة، وقد أصبح ديانة تفرض عقيدتها على شعوب الأقاليم المفتوحة. استطاع الإسلام الأوليّ أن يستميل إليه في بدء الأمر عطف بعض فئات من الكنائس المسيحيّة التي ساعدته على الاستيطان وتنظيم أموره. ولكن إسلام منتصف القرن الثامن المتعصّب والمتصلّب فقد تعلّق المسيحيين

[29] مروان بن محمد والذي كانوا يدعونه بمروان الحمار لشدة صبره وإصراره على الوصول إلى هدفه.

[30] هذا هو رأي المؤلف المخالف للرأي الإسلامي في أن خروج العرب من جزيرتهم إنما كان لنشر دين الله.

السوريين والقبائل المسيحيّة به.

لقد تتبّع الدمشقيّ من دير مار سابا تقدّم جيوش قتيبة وموسى بن نصير الصاعق، وحضر ذلك الصراع المرير الدامي حتى الموت بين المسيحية والإسلام في حوض البحر المتوسط كلّه. لم يعد بإمكان الدمشقي أن يكنّ للإسلام ذلك الحلم والتسامح اللذين اتّصف بهما جدّه منصور ووالده سرجون. إنه مواطن وفيّ للخلافة مع أنه مسيحيّ وكاهن. فلم يعد للإسلام حقّ في تلك المراعاة بعد أن أصبح ديناً لا دولة. ولن يسرّ الدمشقيّ انتشاره واتساع رقعته.

تتبّع يوحنا باهتمام تطوّر أزمة السلالة واتساعها، أزمة سوف تقضي على أبناء معاوية. لم يكن للاضطرابات التي خضّت سنوات الخلافة الأخيرة أدنى وقع في نفسه، ولم يحقد موظف البلاط الأمويّ القديم على من كانوا سبب إبعاده عن وطنه، فقد ابتعد بملء اختياره. إلاّ أن سياسة آخر المروانيّين المتقلقلة المتقلّبة كلّياً عن قضية أسرة بدت ليوحنّا غير جديرة بمؤسّسها.

الفصل السّادس

سَنَوات يوحَنّا الأخِيرَة

يشكّل الصراع ضدّ محطمي الإيقونات آخر المعلومات التي نقلها إلينا ميخائيل الراهب عن يوحنّا الدمشقيّ. وقد التزمت الوثائق الأخرى الصمت عن مرحلة حياته الأخيرة. وهناك نصّ ورد في سيرة اسطفانس السابائي، أن يوحنا ذهب إلى دمشق واستصحب، لدى عودته إلى دير مار سابا، ابن أخيه ليعتنق الحياة الرهبانيّة. وحدث هذا السفر سنة 734. ويحدّثنا فعلاً لاونسيوس الدمشقيّ أن اسطفانس غادر دمشق مسقط رأسه وقد أتمّ التاسعة من عمره. وبما أن اسطفانس مات في 31 آذار سنة 794 وله من العمر 69 سنة، فيكون دخوله إلى الدير سنة 724. ومن الطريف أن يصادف هذا التاريخ نفي هشام لتيودورس شقيق يوحنا الدمشقيّ. هل من علاقة بين اعتزال اسطفانس العالم ونفي والده؟ قد يجوز. فقد مكث المبتدئ الصغير خمس عشرة سنة تحت قيادة عمّه، يصغي إلى إرشاداته ويقتفي إثره.

عمل الدمشقيّ في دير مار سابا والقدس

أمّا أعمال الدمشقيّ المهمّة في دير مار سابا فكانت التعليم وإلقاء المواعظ والكتابة. وقد أغنانا تعليمه بتلك الموسوعة اللاهوتية الفلسفيّة ينبوع المعرفة، التي لخّص فيها تعليم الآباء في أهمّ العقائد المسيحيّة. وقد سمعت كبار معابد المدينة المقدّسة كلام »دفّاق الذهب« البليغ الشعريّ. ولم يصل إلينا من مواعظه إلا النزر القليل: تسع عظات على الأكثر. بيد أن يوحنا »كاهن قيامة المسيح إلهنا المقدّسة« على حدّ تعبير بعض المخطوطات، قد ألقى أكثر من ذلك. أما عظته في مولد العذراء القديسة فقد ألقاها في المعبد نفسه حيث وُلدت، قرب بركة الغنم، وهتف قائلاً:

»السلام عليكِ، يا بركة الغنم، هيكل والدة يسوع الجزيل القداسة. السلام عليكِ، يا بركة الغنم، مسكن الملكة الوراثي. السلام عليكِ، يا بركة الغنم حظيرة يواكيم في ما مضى، والحظيرة

السماويّة لقطيع المسيح الروحيّ الآن. لقد كنتِ تستقبلين في ما مضى ملاك الله مرة واحدة في السنة، يأتي ليحرّك الماء، ولا يشفي إلاّ مريضاً واحداً، أمّا الآن فأنت حائزة على قوات سماويّة كثيرة، تحتفل معنا بوالدة يسوع لجّةِ العجائب وينبوع الأشفية للعالم أجمع. السلام عليكِ، يا مريم طفلة القديسة حنة الجزيلة الوداعة«.

أمّا عظاته الثلاث في رقاد السيدة فقد ألقاها في 15 آب، في الجسمانيّة في الكنيسة الحاوية ضريح البتول. وقد تمثَّل الخطيب، في إحداها، قبر مريم يتكلّم بتشخيص بليغ. التفت نحو مستمعيه قائلاً لهم: »تأملوا أيها الآباء والإخوة الأعزاء في اللغة التي يحدثنا بها هذا اللحد المجيد. أمّا نحن، فبماذا نجيبه؟«.

ألقى الدمشقيّ هذه العظات إكراماً لمريم بتأثّر عظيم وسمّو الشعور. وقد تذكّر أن الكنيسة الحاوية ضريح العذراء، ما تزال قائمة بفضل نفوذ والده. فلولا تدخله لدى الخليفة عبد الملك لهدمت وأهمل القبر الذي حوى مدةً جسد مريم الطاهر، ولما استطاع الشعب المسيحي أن يزدحم بكثرة ليعيد ذكرى انتقال والدة يسوع.

مزاولة الدمشقيّ عمله رغم شيخوخته

قضى الدمشقي شيخوخة سعيدة خصبة. فلم يقف عبء السنين دون نشاط هذا العامل المجاهد الذي لا يعرف معنى للكَلَل والتعب، بل ما زال يعظ وقد بلغ شتاء الحياة. وكان الشعب الأورشليميّ يستمتع بفصاحة هذا الشيخ الجليل. وقد استغلّ أوقات الفراغ في أثناء فترة الهدوء التي أفسحها اضطهاد محطّمي الإيقونات ليعيد النظر في كل ما كتب وأنتج. وقد حمل العديد من مؤلفاته سماتِ الزيادة والتنقيح تناولت المعنى والمبنى. وهذا ما يؤيده كليّاً التقليد المخطوط.

* * *

طعن يوحنا في السنّ »ووصل إلى شيخوخة متناهية مخصبة بالصالحات«، على حسب ما

أورد ميخائيل الراهب وذكَر البطريرك والسينكسارات عموماً, وتؤكّد السيرة المرسيانيّة أنه »قضى سبعين سنة متواصلة في النسك وممارسة الفضائل والتأمّل بالشريعة الإلهيّة«. إن المبالغة واضحة، ما لم يكن اعتنق حياة الزهد في الدنيا باكراً. إلاّ أننا لا نستبعد ما جاء في أحد السينكسارات أن يوحنا عاش مئة وأربع سنوات. لقد عوّدتنا التواريخ الرهبانيّة على طول العمر هذا في حياة النسّاك القدماء. فما لنا إلاّ أن نتصفّح كتاب المرج الروحي ليوحنا مسخوس الدمشقيّ لنتحقق ذلك. وإذا تعذّر علينا التأكد من هذا الأمر، فيمكننا أن نعتبر الدمشقيّ مات طاعناً في السنّ يناهز المئة سنة تقريباً، وقد أجمعت الوثائق القديمة على إثبات ذلك.

خلافاً لما جاء في سيرة الدمشقيّ المرسيانيّة، لم يغادر يوحنا قطّ دير مار سابا ليذهب »ويرتاح في الربّ، في بلده الأصليّ، مدينة دمشق، اليوم الرابع من شهر كانون الأول«. لقد مات في الدير الذي شهد كفاحه الروحيّ، وحيث تدرّب على طرق الزهد في الدنيا والنسك والتأمل وأتقنها جميعها.

سنة وفاته

تضاربت آراء العلماء حول تحديد سنة مولد الدمشقيّ، مما جعلها تتباين أيضاً في تحديد سنة وفاته. فيتراوح تاريخ وفاته المقترح ما بين سنة 750 و780. ومنذ ظهور مقال الأب فايليه سنة 1906، تجمّعت الآراء حول سنة 749 / 750، وإننا نعتقد أن هذا التاريخ هو الصحيح الأكيد.

دفن الدمشقيّ في دير مار سابا

دُفن الدمشقيّ في دير مار سابا. وأشار دانيال الراهب الروسي إلى وجود بقايا القديس سنة 1106 في البناء الصغير القائم فوق ضريح المؤسس مار سابا: »في هذا المكان، ترقد بقايا آباء قدّيسين كثيرين، منهم الأسقف القديس يوحنا السكوت، والقديس يوحنا الدمشقيّ، والقديس تيودورس الرّهاوي وميخائيل ابن أخيه«. ثمّ بعد انقضاء 71 سنة (أي سنة 1177)، ذكر يوحنا فوكاس أنه في البناء الصغير نفسه، بدت إلى جانب ضريح مؤسس الدير، »مغارة تحوي قبور

قدّيسين آخرين، منهم يوحنا الدمشقيّ وقزما«.

الاعتراف بقداسة يوحنا وإكرامُه

لقد ترك يوحنا سمعة قداسة بين معاصريه، وخصّه المجمع المسكونيّ السابع بأسمى عبارات الثناء في جلستيه السادسة والسابعة: »الذكر المؤبد ليوحنا.. بطل الحقيقة«. وقد أكرمه في البدء دير مار سابا، وما عتم أن أصبح الدمشقيّ موضوع إكرام شامل وتقديس عام. وفي نهاية القرن الثامن، بعد موت الكاهن الراهب المتواضع ببضع عقود، نظم له استفانس المنشد ذلك القانون الرائع الذي لا تزال الكنيسة البيزنطيّة تُنشده حتى اليوم في عيده (4 كانون الأول) نقتطف منه هذه الطروباريات

من صلاة المساء أو الغروب:

»ماذا ندعوكَ، أيها القديس؟ أيوحنا المتكلّم باللاهوت، أم داود المترنم؟ أكنّارة ملهمةً من الله، أم ناياً رعائياً؟ فإنك تحلّي السمع والعقل، وتبهج محافل الكنيسة. وبأقوالك الفائضة عسلاً تزيّن الأقطار. فابتهل في خلاص نفوسنا«.

»ماذا أدعوك، أيها الدائم الذكر؟ أمشكاةً ساطعة النور أم معلّماً شريفاً؟ أخادماً أسرار الله أم متفحّصاً لها؟ أنجماً مزيّناً البيعة أم مصباحاً منيراً لأولئك الراتعين في الظلام، أم آلةً حسنة التلحين، أم بوقاً رخيمَ النغمة؟ فابتهل في خلاص نفوسنا«.

لقد أطلق تيوفانس واسطفانس البيزنطيّ على الدمشقيّ لقب قديس منذ أوائل القرن التاسع، وكذلك انسطاسيوس أمين دار الكتب وقدرانس. وقد أسماه جاورجيوس باشيمير القديس والأب الإلهي يوحنا الدمشقيّ. وأتى على ذكره مخطوط مكتبة سيناء العائد إلى القرن التاسع أو العاشر ودعاه قديساً. ودعاه ميخائيل الراهب كاتب سيرته زينة هياكل سيّدنا المسيح.

وقد ظهر اسمه في أقدم السينكسارات. وأمدّنا أبو ريحان محمد البيروني في كتابه الآثار الباقية عن القرون الخالية بنصّ تقويم ملكيّ لدينا (أوائل القرن الحادي عشر) يضع عيد قدّيسنا في 3 كانون الأول:

»ذكر أن يوانيس الأب، مؤلّف رسوم النصرانيّة. والأبوّة عندهم غاية التعظيم في الخطاب، لأن أصولهم مبنيّة على ذلك، ورسوم دينهم ليست مشروعة، وإنما استخرجها أئمتهم المعظمون على قوانين أقاويل المسيح والسليحين (الرسل) وهذا المذكور منهم«.

وقد نشر ديلهيه تقاويم بيزنطيّة أتت على ذكر عيد الدمشقيّ في 4 كانون الأول؛ وقد حدّد بعضها عيده في 29 تشرين الثاني على نحو مخطوط دير الصليب المقدّس قرب القدس رقم 40 والعائد إلى القرن العاشر. وقد حدّد مينولوج باسيليوس التاريخ نفسه. واختارت الكنيسة البيزنطيّة في النهاية تاريخ 4 كانون الأول لتكرّم الدمشقيّ مع القديسة بربارة التي أتى على مدحها. وتعيّد الكنيسة الروسيّة لذكرى أعجوبة اليد المقطوعة والتي أعادتها البتول سالمة في 28 حزيران و12 تموز. كما أنها تكرم إيقونة البتول ذات الأيدي الثلاث.

أما الكنائس المنفصلة التي أوسعها الدمشقيّ نقداً لاذعاً فلم تكن ميّالةً للاحتفال بذكراه. فلم نجد له أثراً في اقدم التقاويم التي راجعناها عند اليعاقبة والأقباط والأرمن، ما عدا الكنيسة الحبشيّة أو الإثيوبية. فقد نشر س. غريبو تقويماً إثيوبيّاً خصّ الدمشقيّ (يوهانس زا دمشقو) بنبذة مسهبة، في 8 تحشاش، تحدّث فيها الكاتب عن أصل القديس النبيل، وثقافته الفلسفيّة على يد كلهيرو قزما، وعن وظيفته كأمين سرّ حاكم دمشق، ونضاله في سبيل إكرام الصور المقدّسة، ونهايته، واليد المقطوعة، وتدخّل العذراء مريم لشفائها، وأخيراً اعتزاله العالم ليذهب إلى دير مار سابا. وأتى على ذكر مخالفة يوحنا لأوامر أبيه الروحيّ والعقاب الذي أنزله به الراهب الشيخ وتأنيب العذراء لهذا الناسك الغضوب.

إن أقدم تقويم مارونيّ نعرفه والمنسوب إلى جبرائيل بن القلعي، لم يأتِ على ذكر القديس الدمشقيّ مطلقاً. وقد أُدرج عيده في ما بعد في التقويم المارونيّ. وقد خصّ بنُبذة مسهبة دقّاق الذهب سنكسارٌ مارونيٌّ ورد في المخطوط الكرشوني 11 / 1 المحفوظ في دير الشرفة (لبنان)، وذلك في السادس من أيار.

ويحتفل (جدول أعياد القديسين) المرتيرولوج الروماني بيوم مولد الدمشقيّ في 6 أيار. وكان هذا العيد لتكريم »وضع رفات يوحنا الدمشقيّ، الطيّب الذكر والملفان اللامع، في القسطنطينية«، بحسب مرتيرولوج قديم لرهبان شارتر في كولونيا (ألمانيا)، ومرتيرولوج آخر تجدّد طبعه ثلاث مرات في البندقية سنة 1564 و1570 و1578. لا يشير هذا العيد إلى نقل رفات القديس إلى القسطنطينية في القرن الثالث عشر كما ظنّ الأب جوجي، بل إلى الاحتفال بيوم مولده. ويتوافق هذا مع مينولوج باسيليوس القائل إن يوحنا مات في القسطنطينية نفسها.

تبنّت الكنائس الشرقية عيد الدمشقيّ بالتوالي لدى اتحادها بروما. واختارت الكنائس السريانية والأرمنيّة تاريخ 4 كانون الأول للاحتفال بهذا العيد.

وفي 19 آب 1890 عمّم البابا لاون الثالث عشر عيد قديسنا على الكنيسة الجامعة، وحدّد الاحتفال به في 27 آذار. وهكذا تقيم الكنيسة اللاتينية حالياً عيدين لتكريم يوحنا الدمشقيّ.

لقب الدمشقيّ

لقد اتسمت كتابات الدمشقيّ بالبلاغة والفصاحة، ولذا استحق أن يدعى دفّاق الذهب باسم النهر الذي يروي دمشق وطنه. وأوّل من أطلق عليه هذا الاسم، المؤرخ اليونانيّ تيوفانس لأناقة إنشائه وخطاباته وسموّ فضائله. ونهج المؤرخون واللاهوتيّون البيزنطيّون في ما بعد نهج تيوفانس وطبّقوا على الدمشقيّ هذا اللقب. وقد دعاه تيوفانس أيضاً العلاّمة الممتاز الماهر. وقد جسّم الدمشقيّ في نظر مؤرخي بيزنطة ولاهوتيّيها، مقاومة بدعة محطّمي الإيقونات، وأسموه الإلهي، وامتدحوا حكمته وعمله. وأكّد البيروني، على نحو ما رأينا سابقاً، أن الكنيسة الملكيّة خلعت على الدمشقيّ لقب أب أي علاّمة، معلم. وأسماه مرتيرولوج رهبان كولونيا الملفان الممتاز. وقد امتدح مرتيرولوج البندقيّة اللاتيني (القرن 16) تعليمه وعقيدته. وقد سمّاه السينكسار الأرمني المطبوع في القسطنطينية العلاّمة الأكبر. إن هذا اللقب الذي أقرّته ليوحنا الدمشقيّ سيَر القديسين والليتورجيا منذ قرون طوال، قد منحته إياه السلطة العليا في البيعة، في 19 آب 1890، لدى إعلان البابا لاون الثالث عشر قدّيسنا علاّمة الكنيسة.

الفصل السابع

إنتاجُهُ الأدَبيّ

لقد تعدّدت مآثر الدمشقيّ الأدبيّة ونشاطاته. فكان قبل كل شيء لاهوتيّاً، وتناول في سبيل اللاهوت علوماً بشريّة مختلفة، هي بحسب اعتقاده »خادمة تلك الملكة«. وهو أول من حاول أن يضع عرضاً مجملاً للعقيدة المسيحيّة، ودافع عنها ضدّ هرطقات عصره المتعدّدة، ووجّه اهتمامه في الوقت نفسه إلى شرح الكتاب المقدس واللاهوت الأدبي والحياة النسكيّة. وكان خطيباً معتبراً وعُني بالشعر والموسيقى الكنسيّين.

أمّا مؤلفات الدمشقيّ الحقيقيّة فمن الصعب وضع جدول كامل نهائيّ لها. لقد نقّب لوكويان عنها بدقة في مخطوطات مكتبة باريس الوطنيّة، وتحرّى عنها جزئياً ألآسيوس، في المكتبة الفاتيكانية، ولا بدّ من القيام بمثل هذا العمل في مكتبات أخرى.

وهنالك قضيّة لم تُحلّ عقدتها بعد. هل ترك يوحنا مؤلفات في اللغة العربية؟.. لم تنشر المكتبات حتى الآن جدولاً كاملاً بمحتوياتها العربيّة. لعلّنا نحصل في نشر هذه الجداول على مفاجآت سارّة.

ونورد في ما يلي لائحة – وقد أكملناها – بمؤلفات الدمشقيّ، بموجب معلوماتنا الحاضرة، مقتبسة من مقال قيّم للأب جوجي.

-أ- المؤلفات العقائديّة

كتاب ينبوع المعرفة

أهمّ مؤلفات يوحنّا الدمشقيّ وتحفته الفريدة الحقيقيّة هو عرضه للعقيدة الكاثوليكية في كتاب ينبوع المعرفة، تتقدّمه توطئة فلسفيّة وتاريخيّة. إنه أفضل تلخيص للتقليد اليونانيّ، ولا سيّما قضايا المعتقد الخاصة باللاهوت الشرقيّ العقائدي، وقد عنونه ينبوع المعرفة. وقدّم كتابه

هذا لقزما زميله السابق في دير مار سابا وأخيه بالتبنّي، وقد سيم أسقفاً على مايوما سنة 742. فيكون أن يوحنا قد وضع مؤلّفه بعد هذا التاريخ.

أقسامه:

يقسم كتاب ينبوع المعرفة إلى ثلاثة أقسام: القسمان الأولان توطئة فلسفيّة وتاريخيّة. أما القسم الثالث، وهو الأطول والأهمّ، فيحوي »بيان العقيدة القويمة«.

عنوان القسم الأول »فصول فلسفيّة«، وهو أصحّ من العنوان الشائع قبلاً »فصول جدليّة«. يحوي هذا القسم توطئة فلسفيّة للعرض اللاهوتيّ وعدداً من التحديدات الفلسفيّة لبعض الفلاسفة الأقدمين، ولا سيّما آباء الكنيسة، وهم معلّمو الدمشقيّ الحقيقيّون في الفلسفة، أكثر من أرسطو.

لدينا من هذا القسم الأول نسختان يونانيّتان: الأولى مسهبة تكثر فيها المراجعات، والثانية مختصرة، وهي الأخيرة، وقد أورد لوكويان كلتيهما.

أمّا القسم الثاني أو كتاب الهرطقات، فهو توطئة تاريخيّة لعلم اللاهوت، يدرس فيه القديس نشأة مئة وثلاثة تعاليم دينيّة زائفة وانتشارها.

ينقل المؤلف حرفيّاً، في الثمانين الأولى منها، ما كتبه القديس أبيفانيوس في الباناريون. ويستمدّ ما تبقى من كتبة عديدين نظير تيودوريتوس وتيموثاوس القسطنطيني ولاونسيوس البيزنطي وصفرونيوس الأورشليمي. أما عمله الشخصيّ الحقيقيّ فهو ما يتعلّق بالإسلام وبدعة محطّمي الإيقونات وشيعة الأبوسخيتيّين.

مصادر معلومات الدمشقيّ

لقد استقى يوحنا الدمشقيّ معلوماته من المصادر اليونانية، خاصةً من أثناسيوس، وباسيليوس، وغريغوريوس النيصيّ، ويوحنا الذهبيّ الفم، وناميسيوس الحمصيّ، وسفيريانوس

أسقف جبلة، وكيرلس الإسكندريّ، وكيرلس الأورشليمي. وكان غريغوريوس النزينزي المؤلِّف المفضَّل لديه في ما يتعلق بالثالوث الأقدس. وقد استوحى ما يختص بأقنوم المسيح من لاونسيوس البيزنطي ومكسيموس المعترف وأثناسيوس السينائي، ولم يعرف من لاهوت الغرب سوى رسالة البابا القديس لاون إلى فلابيانوس.

القسم الثالث من كتاب ينبوع المعرفة ذو قيمة عقائديّة عظيمة، ويعبّر أدقّ تعبير عن تقليد الكنيسة اليونانيّة.

* * *

وقد ألّف الدمشقيّ، علاوة على كتابه هذا العظيم والموسوعة اللاهوتيّة الحقيقيّة، كتباً وكراريس كثيرة:

1- المداخل الأوّلى للعقائد

وهو مبحث فلسفيّ صغير، أملاه، على ما يبدو، القديس الملفان على تلاميذه، وجمعه يوحنا الذي اعتلى في ما بعد كرسيّ لاذقيّة لبنان (جبلة). ويعود هذا المبحث إلى السنين الأولى لدخول القديس دير مار سابا، ووضعه قبل كتاب »ينبوع المعرفة«.

2- كتيّب في العقيدة الحقيقية

وهو إعلان إيمان مفصّل كتبه يوحنا الدمشقيّ لإيليّا أسقف يبرود وتلاه الأسقف أمام متروبوليته بطرس مطران دمشق. ويعود هذا الكتيّب، على ما يبدو، إلى ما قبل سنة 726 لعدم وجود أيّ تلميح فيه إلى بدعة محطّمي الإيقونات.

3- مبحث في الثالوث الأقدس

وهو موجز عقائديّ، على طريقة السؤال والجواب، عن الله والثالوث والتجسّد. ويبدو أن يداً أخرى صاغت هذا المبحث، وهو مستمدٌ من مؤلفات يوحنا.

4- بيان الإيمان القويم وشرحه

ورد إلينا محفوظاً في ترجمة عربيّة. يرى فيه الأب جوجي إعلان إيمان يوحنّا الدمشقيّ، وقد تلاه يوم سيامته الكهنوتية، ويعود إلى ما قبل سنة 726 للسبب عينه المذكور أعلاه.

الدمشقيّ واليهود

لقد هاجم الدمشقيّ اليهود في كتاباته الدفاعيّة عن الإيقونات. وكانت الجاليات اليهوديّة، لدى الفتح العربي، منتشرة في كل مدن حوض البحر المتوسّط وعلى حدود ما بين النهرين. وقد لبثت دمشق مركزاً يهوديّاً هامّاً حتى بعد أن أصبحت مدينة مسيحيّة قويّة. وقد وجد حقدُ أبناء إبراهيم الشديد ضدّ المسيحيّين مجالاً واسعاً في أثناء الاحتلال الفارسيّ. فهدموا كنائس عديدة وقتلوا مسيحيّين كثيرين. فحاول هرقل أن يبعد خطر وجودهم في المملكة فأصدر سنة 634 مرسوماً يقضي بإرغامهم على العماد المقدّس، فكانت النتيجة الحتميّة الواضحة لهذا المرسوم ازدياد الضغينة ضدّ المملكة وتحالفهم مع المسلمين.

وقد وصف واضع كتاب **العقيدة اليعقوبيّة** فرح يهود قرطاجة لدى سماعهم بانهزامات سرجيوس دوق فلسطين الأولى. ويذكر هذا الكتاب أيضاً وجود عدد منهم في صفوف العرب. إن التاريخ حافل بالتفاصيل عن تجسّس اليهود ونقلهم الأخبار للمسلمين بغية تسهيل زحفهم. فكانوا لهم جواسيس لا بل سماسرة يتقاضون مبالغ ذهبيّة بدلاً من أسرى الحرب المسلمين والمغانم. وفي سنة 643 حرض يهود أورشليم عمراً[31] ضدّ الصليب المرفوع على قمة جبل الزيتون. فآل تصرفهم إلى تدمير كل الصلبان المرفوعة في فلسطين. ولقد أشرنا في مكان آخر إلى الدور الذي لعبوه في مشاعر هذا أو ذاك من الخلفاء الأمويين ضدّ الإيقونات. ولم يكونوا غرباء عن اندفاع الملوك الإيصوريّين الحماسيّ ضدّ الصور المقدّسة.

إن الأدب المسيحيّ المناهض لليهود قديم قِدَم المسيحيّة. ولم يخلُ منه القرنان السابع والثامن. يشهد على ذلك الكتاب الذي وضعه لاونسيوس، أسقف نيابولس في قبرص (590 – 668)، نزولاً عند رغبة قزما الراهب المصريّ، دفاعاً عن الإيقونات المقدّسة وهو مخصّص

---

[31] كذا وردت وهذه التهجئة ملبسة. أهو عمر بن الخطاب، أم عمرو بن العاص، فـ»عمر« لا تنوّن بالعربية.

لدحض حجج اليهود. ثم عقبه كتاب »مغانم دمشق« وقد كتبه على الأرجح راهب خلقيدوني حول سنة 680، ثم كتاب »العقيدة اليعقوبيّة«، وقد جاء بعد ذاك بأربعين سنة، ثم »حوار بابيسكوس وفيلون« حول سنة 740، وكان ميدان الكتاب الأول عاصمة الأمويّين. وحدّثنا أركولف عن معاوية أنه اطلع على نقاش بين اليهود والمسيحيّين حول كفن المسيح.

لقد كان الدمشقيّ في وضع يخوّله الاطلاع على تصرّفات اليهود وتحركاتهم حول النظام السياسيّ الجديد. ولم يكن غريباً عن المناقشات القائمة بين إخوته في الدين وأنصار الكنيس من اليهود في دمشق. أمّا في دير مار سابا فقد صرفته مشاغله العقائديّة إلى مواضيع أخرى. ولم تخلُ مع ذلك بعض تآليفه من مجابهة بعض العقائد اليهوديّة، على نحو مقطع »التنانين والجنّيات«. ولدى كتابة مقالاته الدفاعيّة عن الصور المقدّسة، وجّه الدمشقي حججه ضد الأباطرة محطّمي الإيقونات مثلما وجّهها ضدّ اليهود أنصارهم والطاعنين بالعبادة المسيحيّة لدى الخلفاء.

شرح الكتاب المقدس

ترك لنا يوحنا الدمشقيّ كتاباً واحداً في شرح الكتاب المقدّس؛ **تفسير رسائل القديس بولس**. وهو مؤلَّف ليس للدمشقيّ فيه أثر شخصيٌّ كبير، إذ قد استوحى أكثره من مواعظ القديس يوحنا الذهبيّ الفم وتفاسير تيودوريتوس وكيرلس الإسكندريّ.

الشعر، الموسيقى، الليتورجيا

يوحنا والشعر الكنسيّ

لقد ألّف الدمشقيّ الشعر منذ حداثته. وعرف الشعر العربيّ نوعاً من النهضة في عهد الأمويّين، وأصبح البلاط الأمويّ على غرار سوق عكاظ يتزاحم فيه الأخطل والفرزدق وجرير وذو الرّمة وكُثيِّر والراعي والنابغة الشيباني ونُصَيب، إلخ.. وحافظ الخلفاء الأمويون الأولون على عوائد شيوخ الصحراء، يرحّبون بحماس بكل بدويّ أيّاً كان، شريطة أن ينشد الشعر.

فقضى يوحنا جلسات مرحة بمعيّة الشعراء والموسيقيّين في حوّارين. وغُني يزيد وعبد الملك بالشعر وقد عاش الدمشقيّ بصحبة يزيد، وكان موظفاً عند عبد الملك.

ليس لدينا ما يُثبت أن يوحنا تعاطى الشعر العربيّ، إنما هناك أدلة كثيرة تشير إلى موهبته الشعريّة، وتآليفه اصدق شاهد على ذلك. ويبقى الدمشقيّ في نظر التقليد البيزنطي أفضل من أنشد الشعر. إن ميخائيل الراهب الأنطاكي وسائر كتبة حياة القديسين والسينكسارات وطروباريات الميناون تتحدث كلّها بحماس عن منجزاته الشعريّة وقوانينه وأناشيده التكريميّة للسيّد المسيح والعذراء القدّيسة والقدّيسين، »ولا تزال الكنيسة تترنّم بها حتى اليوم وهي تثير في نفوس سامعيها سروراً إلهيّاً«. لقد وضع بيزنطيّو القرون الأخيرة يوحنا الدمشقيّ وأخاه بالتبنّي قزما في قمة المنشدين اليونانيّين، وكثر المعلقون على منجزاتهما، فيؤكد سويداس »أنه لن يعادل أحدٌ مطلقاً إنجاز قوانين يوحنا وقزما«.

وتنسب سيَر القدّيسين إلى يوحنا الدمشقيّ تأليف كتاب الأكتوئيخس وقوانين شعريّة كثيرة.

كتاب الأكتوئيخس بمعناه العريض، أو كتاب المعزي، كتابٌ طقسيٌّ يحوي أجزاء الفرض اليوميّ على مدار السنة، تتلى في صلاة الغروب ونصف الليل والسحر والإينوس وفي الذبيحة الإلهيّة. ويُقسم إلى ثمانية أقسام، على حسب نظام الألحان الثمانية. أما الأكتوئيخوس بمعناه الحصريّ والدارج فيضمّ الصلوات الخاصّة بيوم الأحد.

يوحنّا والنغم الكنسيّ والموسيقى الكنسيّة

لم ينحصر عمل قدّيسنا بتأليف الأناشيد بل وضع أنغاماً كنسيّة تتماشى ومؤلّفاته الشعريّة. وهنا أيضاً ضخّم التقليد دور يوحنا، واعتبره المنهل الأول للموسيقى الكنسيّة وواضع الكتابة الموسيقيّة المعروفة بالكتابة المقدِسيّة أو الكتابة المربّعة.

وقد أضاف يوحنا إلى الموسيقى الكائنة قبله بعض العلامات. كانت تسع عشرة علامة فصارت خمسة وعشرين بزيادة ست علامات. إن الهدف من عمله هذا تحسين العلامات الصوتيّة، فأوجد قواعد وعدّلها فكانت للأجيال اللاحقة عملاً ثابتاً دائماً. وقسم العلامات إلى فئتين: علامات الكمّية أو علامات الصوت، وعلامات الكيفيّة الصوتيّة أو العلامات الخرس.

وينبذ النقد التقليد الذي أسند إلى يوحنا وضع المبادئ الموسيقيّة على شكل سؤال وجواب[32].

الدمشقيّ وتيبيكون مار سابا

وهنالك تقليد شائع أن تيبيكون دير القديس سابا – في قسمه الأكبر – من صنع القديس يوحنا الدمشقيّ. ويخبرنا سمعان التسالونيكي أن قوانين مار سابا وتقاليده جمعها القديس خاريطون في مصر، ثم نقلها شفهيّاً بواسطة القديس تيوكتيستس والقديس أفتيميوس إلى القديس سابا والقديس تيودوسيوس. وأعاد النظر فيها ونقّحها تتابعاً القديس صفرونيوس، ويوحنا الدمشقيّ. »نظنّ أن يوحنا، لدى تدفّق الأناشيد الجديدة التي كان الفرض الإلهي يغتني بها، وأمام كثرة الترانيم الجديدة، اضطُر إلى أن يعيد ترتيب هذه المجموعة على حسب احتياجات الوقت. ولكن، وفي غياب طبعة جيّدة لهذه المجموعة يشملها نقد صحيح، ولا نستطيع أن ننسب إلى كل واحد ما يعود إليه من الإسهام الدقيق في هذا الكتاب«.

نشر مؤلّفات الدمشقيّ

نشر علماء عديدون بعض مؤلفات القديس يوحنّا الدمشقي، على نحو غالبيّة تآليف آباء الكنيسة الآخرين، قبل أن تُضمّ إلى مجموعات كاملة نسبياً. وأول كتاب نُشر هو بيان الإيمان الأرثوذكسي، نقله إلى اللغة اللاتينية جاك لوفيفر، باريس، سنة 1507. وأعيد طبعة سنة 1512 و1519 مع تعليقات كليشتوف. وطُبع هذا البيان بنصّه اليونانيّ مع خطاب حول الذين رقدوا على الإيمان، سنة 1531، بعناية مطران فيرون متّى جيبرتي.

في سنة 1546، نشر هنري غرافيوس تآليف الدمشقيّ في مدينة كولونيا الألمانية.

[32] لن يعرف عمل الدمشقيّ الموسيقيّ الشخصيّ الصحيح ما لم يتمّ فرز المخطوطات الكثيرة الراقدة في زوايا المكاتب الكبرى. بعد هذا العمل الأوليّ يكشف النقد الداخليّ الميّزات الخاصة بأسلوبه الموسيقي. لقد أمضى يوحنا سني حداثته برفقة موسيقيّي الحجاز، فتشرّب إيقاعهم وأثّر هذا في شعوره الرقيق وترك انطباعاً شديداً في نفسه. وبحسب رأينا الضعيف اكتسب يوحنا من العبقريّة الموسيقيّة السوريّة أكثر من اكتسابه من العبقريّة البيزنطيّة.

ولعل هذا الرأي يساعد الباحثين في إيضاح هذه العقدة وتحديد مساهمة الدمشقيّ في الموسيقى.

وظهرت طبعة أخرى في باريس، سنة 1577.

وأصدر لوكويّان أول وآخر طبعة كاملة لتآليف الدمشقيّ (باريس 1712)، في مجلّدين. وظهرت في البندقيّة نسخة عنها سنة 1748 بدون أدنى تغيير، وقد تقدمتها توطئة عامة، وتوطئات الناشرين والنقّاد السابقين، وسبعة أبحاث علميّة في مسائل عقائديّة أو تاريخ الأدب، تتعلّق من قريب أو بعيد بالقديس يوحنا الدمشقيّ وكتاباته، وسيرته التي كتبها البطريرك يوحنا، ومجموعة الشهادات القديمة عن الملفان القديس.

تهمة ظالمة

لا تكفّ مصادر سيرة الدمشقيّ القديمة عن الثناء على إنتاجه الأدبي. فما هي قيمة هذا الثناء؟

لقد نُشرت في كتب تدريس »آباء الكنيسة« بعض الآراء التي تبدو غير مستندة إلى الحقيقة، بعد إنعام النظر في مؤلفات الدمشقيّ. فقد زعموا أولاً أن يوحنا ما هو إلا جامع آراء وكتابات. قد يصحّ هذا بشأن بعض تآليفه، نظير تفسير رسائل القديس بولس، والإزائية المقدّسة، ولا يصحّ مطلقاً على بيان الإيمان الأرثوذكسي، فليس هو مجموعة آراء وكتابات بل عمل شخصيّ، عرض فيه تعليم الآباء اليونان في أهمّ العقائد المسيحيّة؛ ممّا يدلّ على عمل جدّي حثيث لاستيعاب الحقائق الموحى بها، وجهد عبقريّ عظيم لتخليصها وعرضها بلغة متينة جليّة دقيقة. كما لا تصحّ هذه التهمة في كتاباته الدفاعيّة عن الإيمان ومواعظه التي لا تقلّ طرافة وابتكاراً عن تآليف الآباء الآخرين المماثلة.

سبب التهمة تواضعه

وتلك السمعة الظالمة التي ألصقوها بمجرى الذّهب، سمعة جامع آراء وكتابات، كان الباعث إليها تواضع القديس. فلقد أعلن مراراً أنه صدى لمن سبقوه. وفي موضوعيّة عمليّة أراد أن يتستّر، لا بل أن يمّحي تماماً، ليترك الكلام لله وللآباء. وقد كتب زميله القديم قزما، أسقف مايوما، في مقدّمة كتابه الجدليّ:

»أفتح فمي، واثقاً بصلواتك. فهي تستمدّ لي أن أمتلئ من الروح القدس، فأعبّر لا عن أفكاري بل عن أفكار الذي جعل العميان تنظر، فأتلقى منه ما أقول.. لن أتفوّه بما عندي، بل أكتفي بأن أجني، على قدر ما استطيع، ما قاله المعلّمون العظام، وأعرضه بإيجاز، مطيعاً أوامرك في كلّ شيء«.

لا ننكر مع ذلك أن يوحنا أخذ أحياناً من الآباء والفلاسفة بدون أن يشير إلى هذا الأمر.

فضل الدمشقيّ في استخدام الفلسفة

لم يضع الدمشقيّ كتاباً فلسفيّاً بالمعنى الحصري، وإن يكن كتابه الجدليّ فلسفيّاً بمعظمه، وأكثر ابحاثه مشبعة فلسفة، ويلجأ باستمرار إلى المبادئ الفلسفيّة. على أنه لم يشقّ طريقاً جديدة في حقل النظريات، بل استخدم الفلسفة القائمة قبله. وعلى الرغم من هذا كلّه، فإن له فضلاً عظيماً إذ جعل هذا العلم خادماً للعقيدة المسيحية ووسيلة لشرحها وإيضاحها، وقد كمّله وهذّبه بالأفكار المسيحيّة، وأدرك أكثر من كل إنسان في العصور القديمة ضرورة دعم الإيمان عقليّاً، ووجد هذا الدعم في فلسفة أرسطو. لقد سبق واستخدم لاونسيوس البيزنطي والقديس مكسيموس المعترف وأنسطاسيوس السينائي الفلسفة الأرسطوطاليسيّة. »على أن ما فعله هؤلاء في جزء أو قضيّة واحدة فقط، فعله الدمشقيّ للعقيدة المسيحيّة كلها، بل لكل علم. أراد ألا يدع بعده زيادة لمستزيد. لم يبتدئ الأسلوب المدرسيّ البيزنطي معه فحسب، بل وجد فيه تعبيره الأكمل، وبهذا كان الدمشقيّ مثالاً غالياً للغربيّين. إنه عقل منسّق، برهن عن مقدرة وصفات رئيسة في العمل الذي قام به: الوضوح، والدقة في اختيار الألفاظ واستعمالها، محبّة التمييز والتقسيم وإقامة الحجج، تلك هي الفضائل التي اتصف بها بالأكثر يوحنا الدمشقيّ«.

أناشيد الدمشقيّ

أما تقدير الأناشيد التي صاغها فلن نجد لإصدار الحكم فيها أفضل من سرد بعض الشهادات بشأنها. وقد أطنب الجميع في مدحها من قدماء ومحدثين:

»تناول يوحنا القيثارة النبويّة ومزمار داود لينشد ترانيم جديدة. فأنسى بتوقيعها نشيد

موسى، وفاق جوقة أخته مريم، وقضى على أنغام أورفي العالميّة، واستعاض عنها بأناشيد روحيّة، وقلّد الشاروبيم، وجمع الكنائس كلّها حول العذارى ضاربات الطبلة وحول أورشليم أمّها، وردّد بنشيد جديد موت المسيح وقيامته. ما من أحد عبّر عن عقائد الإيمان تعبيراً أفضل منه، وأفحم الهرطقة المنحرفة الخبيثة بعلمه الفائق، وقد تدفق من كتبه الكلام الصالح المفيد، ونطق بأعمال الملك التي تفوق أبداً كل إعجاب«.

»أنتج يوحنا وقزما طروباريات وقوانين عديدة للأعياد السيّديّة وتذكار القدّيسين، بعضها شعر، لا تزال كنائس الله تترنّم بها حتى اليوم، لأنها رائعة جدّاً وملأى حلاوة وسحراً موسيقيّاً«.

وقال كرومباكر »إن شعر قزما أدنى بكثير من شِعر يوحنا، ومع ذلك، فإن لشعر الاثنين الملامح العامة نفسها. مثلهما الأعلى المشترك، شعر القديس غريغوريوس النزينزي«.

»أناشيد الدمشقيّ من أرقى شعر الكنائس المسيحيّة بعمقها الشعريّ وقوة الإيمان المتجلّية فيها.. لقد بلغت أناشيد الكنيسة، بقلم يوحنا، أوج ازدهارها وجمالها. لن يوجد كتَبة مبرّزون في حقل شعر الكنيسة البيزنطية«.

»لقد فاق يوحنا بشعره الغنائي القديس غريغوريوس النزينزي، وكاد يكون فنّه أدنى بقليل من فنّ القديس رومانس المنشد الفريد. إن قانون الفصح، كما ينشده الكهنة الروس اليوم، يجعل نفس المؤمن تهتّز ابتهاجاً حيال المسيح المنتصر على الموت. الكلام أجمل من النغم، فيحملنا على الاعتراف بأن العالم المسيحيّ الشرقيّ يملك كنوزاً عظيمة في الشعر الكنسيّ«.

أسلوب يوحنا الإنشائي

أمّا أسلوب يوحنا الإنشائي »فهو بسيط واضح وجليّ في مؤلفاته العقائديّة كلّها. لا يخرج عن موضوعه إلاّ نادراً، ويستعمل عادة، في معالجة مواضيعه بدقّة، التعابير الصالحة بحسب طريقته.. وهو أكثر بساطة في مواعظه وأقلّ إتقاناً وتنسيقاً، وأكثر إسهاباً في الكلام. تآليفه الجدليّة ملأى بدقة الأفكار. وقد اضطرّ إلى أن يسلك هذا السبيل في محاربة الهرطقات التي كانت تستخدم ضدّ الكنيسة كل أساليب أرسطو الفلسفيّة وحيلها ومماحكاتها. فكان عليه أن يتعقّب مواورباتهم ويكشف ملابساتهم ويعرض مغالطاتهم، ولا يتحقّق هذا بدون جدل ومناقشة«.

الفصل الثامِن

القدِّيس يُوحَنا الدّمشقيّ
وتأثيرُه في اللاّهوت وَالفَلسَفة والشِّعْر

لقد كان لكتابات الدمشقيّ تأثير كبير وهو بعد في قيد الحياة. وعلى الرغم من حالة الشرق السياسيّة، وقد انشطر إلى معسكرين متناوئين، المملكة البيزنطيّة وخلافة دمشق الأمويّة وبعدها خلافة بغداد العباسيّة، فقد ولجت مؤلفاته القسطنطينيّة، ولا سيما مقالاته المتعلقة بإكرام الإيقونات، وأثّرت تأثيراً عظيماً حتى عُدّ يوحنا الدمشقيّ بكل حقّ بطل أنصار الإيقونات المقدّسة وزعيمهم. أمّا تأثيره في البطريركيّات الملكيّة فكان أكثر عمقاً وثباتاً، فحماها من الضلال وأسهم في حفظ العبادة الحسنة التقليديّة سليمة فيها.

المسيحيون والمدارس الدينيّة

كان صعباً على المسيحيّين في الشرق أن يكون لهم مدارس دينيّة منتظمة التعليم على نحو ما كانوا يتمتعون به قبل الفتح الإسلامي، نظراً لأحوالهم المتقلّبة في عهد العباسيّين. وعلى الرغم من هذا أعطى الدمشقيّ زخماً جديداً أكبر للنشاط الأدبيّ الإلزاميّ التقليديّ في دير مار سابا، فكان له تلاميذ حقيقيّون من أشهرهم تيودورس أبو قرّه.

الدمشقيّ وأبو قرّه

قد نخرج عن الموضوع إذا ما حاولنا في هذا السياق أن نبرهن عن أن تيودورس أبا قرّه عرف الدمشقيّ في دير مار سابا وكان بالحقيقة تلميذاً له. فما لنا في هذه الحال إلا أن نعتمد على النتيجة التي توصّل إليها سواد المرتابين والمشكّكين الأعظم وهي أن تأثير الدمشقي ظاهر جليّاً في كتابات أبي قرّه أقدم اللاهوتيّين الناطقين بالضاد، إذ تبدو لنا العقيدة نفسها والأساليب الجدليّة نفسها ومصادر آباء الكنيسة نفسها، وقد حارب الاثنان أعداء العقيدة القويمة أنفسهم، فنشرت كتابات أبي قرّه تأثير الدمشقي في العالم السوري.

مدرسة دير مار سابا الإمنوغراقية والدمشقيّ

تشكّلت في دير صحراء يهوذا الكبير مدرسة منشدين مهمّة تابعت حتى القرن الرابع عشر تقاليد الدمشقيّ في نظم الأناشيد والقوانين. من أشهر المبرّزين يها استفانس المنشد، وتيوفانس الموسوم، والقديس سابا الحديث، وبابيلاس، وأرسطوبولس، وغريغوريوس ويوحنا ابنا شقيقة الدمشقي أو شقيقه. وعرض نيلوس المنشد في أحد قوانينه، في آخر القرن الثالث عشر، عقيدتَيْ الثالوث الأقدس والتجسّد العزيزتين على قلب الدمشقي، بأسلوب رائع. »ونيلوس شاعر لاهوتي وراهب من دير مار سابا على الأرجح. قد مثّل باعتزاز في القرون الوسطى البيزنطية مدرسة القديس يوحنا الدمشقي وقزما والأخوين الشهيدين تيوفانس وتيودورس..«.

الدمشقي والموسيقى

أمّا مبادئ الدمشقي الموسيقية التي تبنّتها الكنائس البيزنطية فقد بدّل فيها الراهب الآثوسي يوحنا باباذوبولس الملقّب بالكوكوزلي وأضاف إليها. »لقد غيّر، على حسب تعبير الكردينال بيترا، أنغام القديس يوحنا الدمشقيّ السهلة الواضحة بأنغام أكثر أناقة وتعقيداً.. فكان لا بدّ من إيجاد علامات موسيقية جديدة تعبّر تعبيراً صادقاً عن هذه الحركات الصوتية المستحدثة والزركشات النغميّة، فزاد العلامات الموسيقية الموجودة حتى بلغ عددها الستين..«. وقد علّق على قوانين يوحنا »مجرى الذهب« أو »دفّاق الذهب« تعليقاً مسهباً ثيودورس برودرومس والراهب تيودوسيوس ويوحنا زوناراس ومجهولون كثيرون.

الدمشقي والإمْنوغرافية السريانية

لقد شمل تأثير الدمشقي الإمْنوغرافيّ حتى الكنائس التي حاربها. وشهد ابن العبري أن الكنيسة اليعقوبية أدخلت في ليتورجيتها »قانونِه يونونِه« وهي في أغلبها مقتطفات من قوانين يوحنا: »منذ عهد يعقوب الرهاوي وجاورجيوس أسقف العرب دخلت في الطقس السرياني القوانين التي ألّفها الكاتب الدمشقي كوريني[33] بن منصور والراهب قزما.. وفي الواقع لم يأتِ

[33] كوريني هو يوحنا الدمشقيّ.

كـوريني فـي قوانينــه علــى القضــايا المُختلـف عليهـا والتــي سـبّبت الاخـتلاف والشـقاق (بـين المسيحيّين). ولذا دخلت هذه الأناشيد الكنائس السريانية الشرقية والغربيّة«.

ولا يزال شطرا هذه الكنيسة القديمـة الكـاثوليكي والأرثوذكسـي يترنّمَـان بهـذه الأناشيد حتـى أيامنا الحاضرة، ويتلوان في آخر القداس »السهرانة« المنسوبة لقديسنا.

وتنشد كنـائس بروتسـتانية فـي عيـد الفصـح قطعـاً كثيـرة مـن القـانون الـذي وضـعه يوحنـا إكراماً لقيامة المسيح. ولم يتورّع كتبة أقباط من أخذ مقاطع كبيرة من تأليف علاّمتنـا، وقـد أسـموه »الأنبـا ينح الملكـي«، علـى نحـو »أبـو شـاكر بطـرس ابـن الراهـب« (القـرن الثالـث عشـر) فـي مؤلفه »كتاب البرهان«.

نقل مؤلفات الدمشقي إلى العربية وتأثيرها

لـم تتـأخر اللغـة العربيـة عن إزاحـة اللغـة اليونانيـة فحلّت مكانهـا فـي البطريركيـات الملكيـة الثلاث، ولم تعد اليونانية مفهومة لدى الشـعب منذ القرن العاشـر ـ الحـادي عشـر مـا عدا منطقـة أنطاكيـة. فاضـطرت أديـرة فلسـطين وسـوريا إلـى تـأمين حاجـات الرهبـان ورجـال الكنيسـة بمـا يغذّيهم من مؤلفـات الآبـاء القديسين، فنُقلت بعض كتابـاتهم إلـى اللغـة العربيـة منذ القـرن التاسـع، وازدادت حركـة الترجمـة فـي القـرن العاشـر ولا سـيما فـي القـرن الحـادي عشـر. وقـد صُـنِّفت مؤلفـات الدمشـقي بـين كتابـات الآبـاء الأكثـر أهميـة ونُقِلَـت بـاكراً إلـى اللغـة العربيـة. وإن عـدد المخطوطـات العربيـة الكبيـر لبيـان الإيمـان الأرثوذكسـي (المسمى أيضـاً فـي المخطوطـات المائـة مقالة) والديالكتيك أو الجدليّة، يحملنا على الاعتقاد أن موسوعة الدمشـقي اللاهوتيـة لاقت رواجـاً عظيماً ولبثت زمناً طويلاً الكتاب المعوّل عليه لكل طلاب الكهنوت. ولمّـا فتح المرسلون اللاتين في القرن السابع عشر بعض المدارس، وقع اختيار الأساتذة على كتابات الدمشقي. ولقد قـال أحد المرسلين اليسوعين في القرن السـابع عشـر: »علينـا أن نعـرف أن القديس يوحنـا الدمشـقي يُعتبـر هنـا (سـوريا ـ لبنـان) علاّمـة معصـوماً، وأن شـهادته ضـد الهرطقـات لهـا وزن كـل الحجـج التـي يستطيع المرء أن يبرزهـا، ويجـب أن تحلّ مكـان القديس تومـا الأكويني عند مرسلينا. وقد أيقن أحد آبائنا هذه الحقيقة وشغف الشعوب لكل مستجدّ، فعلّم فـي السـنة الماضـية »علـم المنطـق« مـن وضع هذا القديس ولاهوتَـه المتعلـق بـالنقط المختلـف عليهـا، فكانـت دروسـه بمثابـة عظـات بليغـة

يحضرها الإنسان بمتعة وإفادة. وقد حازت طريقته هذه كل تقدير واستحقت فكرته الثناء العطر«. وظلّ بيان الإيمان الأرثوذكسي أو المائة مقالة وكتاب الجدليّة الكتابين الكلاسيكيّين المعوّل عليهما في مدارس أديرة سورية اللاهوتية وفي الكنيسة السريانية وفي فرعي بطريركية أنطاكية الكاثوليكي والأرثوذكسي حتى القرن الثامن عشر. ثم استبدلت عند الكاثوليكيين بترجمات عربية للاهوت الأب اليسوعي ب. ج. أنطوان (+1743) ومطران بواتييه جان كلود فرتريو (+1732).

الدمشقي والأدب الأرمني والكرجي

»واغتنت الآداب الأرمنية والكرجية والجيورجية بترجمات لتآليف علاّمتنا. على أنه من الصعب جداً تحديد درجة تأثير هذه الترجمات في الثقافة اللاهوتية لكنائس لا تزال غير معروفة بعد كما يجب«.

الدمشقي واللاهوت البيزنطي

»كما أنه من الصعب جداً تقدير تأثير القديس يوحنا الدمشقيّ في اللاهوت البيزنطي، لأن هذا اللاهوت لا يزال غير معروف تماماً ولم تُنشر مواد الجزء الأكبر منه، ولأن البيزنطيين اعتادوا إجمالاً أن يسلبوا من سبقوهم بدون أن يُشيروا إلى ذلك أو أن يسمّوهم. على أنه ما من شك في أن تأثيره كان عظيماً. يكفي مقارنة لاهوت الدمشقي مع بيان لاهوت فوتيوس الذي كتبه هِرجنْروتر في مجلّده الثالث عن فوتيوس ليدرك المرء أن هذا البطريرك نقل فكرة علاّمة دمشق مرة ونقلها مراراً بنصّها«.

وقد ذهب البعض إلى القول أنه نقل عنها تصميم مؤلفه. واستفاد منها أيضاً قندولف في مقاله عن التجسد. واستشهد معلم الحكم بطرس لمبار بتعاليم الآباء اليونان ولا سيّما يوحنا الدمشقي. وارتبطت حكمُه بموسوعة الدمشقي حتى استُبدل عنوانها ينبوع المعرفة بهذا العنوان الآخر كتب الحكم الأربعة للمعلم يوحنا الدمشقيّ، واتبعوا فيها تقسيم كتاب الحكم لبطرس لمبار.

واكتسبت الموسوعة الدمشقية شهرة ونجاحاً من إقبال القرن الثالث عشر العظيم على مؤلفات أرسطوطاليس. »وقد لجأ القديس بونفَنْتور وتوما الملفان الملائكي إلى تعليمه وسلطانه بكل تقدير وتواتر ـ نكتفي بذكر هذين اللاهوتيين زعيمي المدرستين المختلفتين ـ ممّا فاق بكثير العشرين أو الثلاثين مرة التي استشهد به معلّم الحكم بيار لمبار قبل قرن«.

تأثير الدمشقي في توما الأكويني

ما هو تأثير يوحنا الدمشقي في خلاصة توما الأكويني اللاهوتية؟ لقد كان بدون شك عظيماً. لكن إلى أي حدّ امتدّ هذا التأثير؟ يحتاج هذا السؤال إلى التدقيق والتعمّق، ما عدا بعض التفاصيل والنقط التي بدا فيها جليّاً تأثير ملفان دمشق يوحنا الدمشقي في عمل الأكويني. ولعلّ التحرّي الجَلود يطلعنا يوماً عمّا بين هذين اللاهوتيين العظيمين من مشاركة في الرأي والأفكار. »ولنا الأمل أن يأتي يوم تضع فيه الكنيسة سفر ينبوع المعرفة إلى جانب موسوعة الأكويني اللاهوتية دعماً للوحدة بين الشرق والغرب«.

تأثير الدمشقي في فكر المسلمين

لقد شمل تأثير يوحنا الدمشقي الإسلام، فقد دفع يوحنا التيّار القدري والمعتزلي.

وأقدم اعتراض على حتميّة مصير الإنسان مصدره الإسلام السوري. وقد أخذ علماء الإسلام القدماء عن لاهوتيّي محيطهم المسيحيين ما حملهم على الشك في حتميّة مصير الإنسان المطلقة. وقد شغلت هذه النقطة العقائدية فكر لاهوتيّي الكنيسة الشرقية. وكانت دمشق في عهد الأمويين مركز الإسلام الفكري والبحث عن القدَر والمقدَّر ومنها امتدت هذه الحركة الفكرية إلى محيط أوسع.

وقد تابع أبو قرّه عمل معلّمه، ونهج نهج الدمشقيّ مدافعون آخرون من أمثال البطريرك النسطوري تيموتاوس الأول الكبير (779 ـ 723)، أو أبو الفرج الأنباري (القرن الثامن ـ التاسع)، والراهب إبراهيم الطبراني المعروف ببطرس الراهب، وأبو الفضل علي بن ربان

النصراني، وأبو الفرج سعيد بن علي الأنباري، وأبو العباس عيسى بن زيد بن أبي مالك، وأبو الخير عيسى بن هبة الله المسيحي، وكاتب رؤيا بحيره المجهول، وعبد المسيح الكندي كاتب الرسالة الشهيرة إلى عبد الله بن إسماعيل الهاشمي، وأبو ريطة التكريتي. وقد اقتصرنا على ذكر المدافعين الذين سبقوا القرن العاشر.

لقد انتصر الإسلام بقوة السلاح والسيف، وبقي أن يعطي براهين منطقية على وجوده وتفوّقه حيال الديانات القديمة القائمة، المسيحية واليهودية والمانويّة. ولقد أرغم جدل الدمشقي ومن سار على خطاه مفكري الإسلام على أن يطّلعوا على الفلسفة الأرسطوطاليسية ويطبقوا على معطيات الوحي الإسلامي مبادئ منطقية بوسعها أن تشرح توافق العقل والإيمان أو معارضته، وحريّة الإنسان، وتمييز صفات الله، والخلق أو أزلية كلمة الله في القرآن، وقيمة التقاليد التي يرتكز عليها الإسلام. لقد كان الدمشقي في أساس تكوين اللاهوت أو علم التوحيد الإسلامي.

لم يحجم بعض المؤلّفين، كونْزِنكْ، عن مقارنة شرح الأشعري (874 - 936) لصفات الله المشبّهة بصفات الإنسان وتفسير التعابير: »يد الله، عين الله، على العرش استوى«، بما أورده يوحنا الدمشقي. ونلاحظ من جهة أخرى أن أبا عيسى الورّاق (القرن التاسع) وقد تبنّى في بياناته عن المسيحية وما قام فيها من هرطقات أسلوباً يتبع عن كثب أسلوب الدمشقي في كتاباته ضد النساطرة واليعاقبة. وإننا لنتساءل هل عرف الورّاق مصنّفات الدمشقي في أصلها اليوناني أو في ترجمة عربية لها؟ وهكذا كان يوحنّا »دفّاق الذهب«، على نحو غير مباشر، في أصل الحركة الفلسفية الإسلامية ودرس العقيدة الإسلامية درساً منطقياً. وقد أثّر تأثيراً عظيماً في المجادلين المسلمين. قال ميغل آسِنْ بَلاسيوس: »إن فلسفة الإسلام ولاهوته مرتبطان ارتباطاً فعليّاً بالفكر الكلاسيكي والمسيحي. وكان يوحنا الدمشقي وتلميذه أبو قرّه، وهما آخر أضواء اللاهوت البيزنطي، مدرّبَيْ اللاهوتيين[34] المسلمين في الشرق ومعلمَيْهم«.

---

(34) علماء التوحيد.

ملحق

1- بيت القدّيس يوحنّا الدّمشقي.

2- يوحنّا الدّمشقي، والتقديس الكبير للعذراء القدّيسة.

3- هُو رَمْز النبُوغ في كُلّ عَصر.

1- بيت القدّيس يوحنّا الدّمشقيّ

لم يعتبر المسيحيّون قطّ مدينة دمشق مدينةً مقدسة، على الرغم من مرور القديس بولس فيها وذكريات اهتدائه. فلم تجذب الحجّاج كثيراً. إن حجّاج القرن الرابع حتى السادس على نحو حاجّ بوردو وإتيريا وبولا وأوشير وتيودوسيوس الذين اجتازوا سورية في طريقهم إلى فلسطين لم يمرّوا بدمشق.

ومنذ الفتح العربي أخذت تخفّ حركة الحجّ شطر فلسطين. أجل لقد زار المطران الغالي أركولف[35] دمشق في عهد معاوية بدون أدنى مضايقة، على أن قوانين الأمن اشتدّت على الأجانب في عهد المروانيّين، فكان عليهم أن يحملوا جوازات خاضعة للتجديد بدون انقطاع لقاء دراهم يدفعونها. وقد زار سورية على عهد هشام المطران الأنكلوسكسوني ويليبالد فأُوقف وسُجن في حمص. وقد بدأ في عهد العباسيّين، انحطاط دمشق »المدينة الحسناء التي كان الفاتحون يفخرون بالحرب من أجلها ويضحّون في سبيلها بنصيبهم في الجنة«. لم ينجُ الأجانب من المضايقات، فكانت نتيجتها المباشرة إبعاد الحجّاج الغربيّين القلائل الذين زاروا الأماكن المقدّسة. وفي القرن التاسع استمرّ الحجّاج في ذهابهم إلى فلسطين، وقد ترك لنا البعض منهم، على نحو أبيفانيوس الراهب وبرنردس المقدسيّ قصة سفرهم. على أنهم لم يجازفوا بالذهاب إلى دمشق التي أصبحت مع تعاقب الأيام مدينة إسلاميّة. وقد خلت هذه الحقبة من الزمن من كتّاب وطنيّين مسيحيين. لقد اتّسم القرنان العاشر والحادي عشر بعقم أدبيّ حتى في ما يخصّ أماكن فلسطين الأكثر قداسة.

وقد كثرت أخبار المسافرين والحجّاج إبان الحملات الصليبيّة، وعظُم عدد الحوليّات اللاتينيّة والأرمنيّة واليونانيّة. **إلا أن دمشق تصدّت للجيوش المسيحيّة وبقيت مدينة القرّاء المقدسة، المدينة ذات المساجد العديدة، والمآذن التي لا تحصى، والملكة التي لم تنتهك**

---

[35] الفرنسي من بلاد الغال.

حرمتها ولم تسقط قط تحت النير المسيحي. فلم يُتح للمؤرخين الإفرنج أن يحدّثونا عن ذكرياتها وآثارها. ولدينا، ما عدا المصادر اليونانيّة المتعلّقة بالحملات الصليبيّة، أخبار حجّ أخرى عديدة بين القرنين الحادي عشر والخامس عشر (أخبار يوحنا فوكاس، وبرديكاس الأفسسي وأوجيزيب) تتحدث بنوع خاص عن فلسطين وليس فيها أدنى خبر عن دمشق، ما عدا رحلة أوجيزيب. ونتحقّق الشيء نفسه في الرحلات العديدة التي تركها لنا الروس القادمون من بلادهم إلى فلسطين. ولا نجد طبعاً أدنى ذكر لآثار دمشق المسيحيّة في قصة الرحلات التي تركها حاخامات اليهود في القرون الوسطى.

وفي سنة 1233، حصل الباب غريغوريوس التاسع من السلطان الأشرف موسى على أن يتعهّد الآباء الفرنسيسكان بعنايتهم مسيحيّي دمشق. وقد أتاح وجود هؤلاء الآباء في المدينة لأفراد رهبنتهم الذين يحجّون إلى الديار المقدسة أن يمرّوا بدمشق ويخصّوها ببعض الصفحات من أخبار رحلتهم. وهكذا تيسّر لنا أن نحصل على بعض الوثائق ابتداءً من القرن الثالث عشر تُطلعنا على تقاليد دمشق المسيحيّة.

*   *   *

لما غادر يوحنّا الدمشقيّ مسقط رأسه ترك ذكرى مسيحيّ ثابت العقيدة، لم يتردّد في التضحية بمنصبه في سبيل إيمانه. إنما لم يأتِ بمعجزة ولا بعمل باهر يستجلب إليه انتباه مواطنيه. فقد مات في دير مار سابا حول سنة 749 أو 750. وأطنب المجمع المسكوني السابع في مدحه والثناء عليه، ومنحه المؤرخون والسينكسارات لقب قديس. ولم يظل مسيحيّو دمشق غرباء عن إجماع الثناء هذا على مواطنهم بعد وفاته، بل تضافروا للاحتفاء بذكر من أشهر مدينتهم ورفع شأنها عالياً. وقد مات يوحنا ودفن في دير مار سابا. ثم نُقل رفاته إلى القسطنطينيّة في القرن الثالث عشر. ولم تسمح حالة المسيحيّين المزعزعة في ديار الإسلام أن يطالبوا برفاته. ولم تحظَ المدينة التي رأى فيها النور بذخيرة من بقاياه. ولا شيء ساعد مواطنيه المسيحيّين على أن يحفظوا ذكره أو ذكر بيته، ولا شيء استدعى انتباه الحجّاج إليه لدى زيارتهم دمشق. لقد اختفى ذكره في أخبار الحجّاج الأولين في القرون الوسطى، وقد أصبح من

العسير إحياؤه في أخبار حجّاج الأزمنة والقرون اللاحقة.

*   *   *

لقد أتى المؤرخون العرب، على نحو الطبريّ وابن البطريق وابن عبد ربّه والمسعودي وابن عساكر والجهشياري وابن العميد، على ذكر الدور الذي لعبه يوحنا الدمشقيّ وأسرته في عهد السفيانيّين وأوائل خلافة المروانيّين، وقد أسعدنا الحظّ فعثرنا عند هؤلاء الكتبة على مكان بيت يوحنا الأبويّ وأسرته. لدينا ثلاث شهادات واضحة: الأولى أوردها مؤرخ دمشق الكبير ابن عساكر (1105 - 1176)، والثانية لابن شاكر (1287 - 1363) والثالثة لسيَد الناس (+1334). قال ابن عساكر:

»سرجون بن منصور الروميّ، كاتب معاوية وابنه يزيد بن معاوية وعبد الملك بن مروان، ذكره أبو الحسن الرازي في تسمية كتّاب أمراء دمشق وذكر أنه كان نصرانيّاً فأسلم، وهو الذي ينسب إليه حَير (بستان) بن سرجون عند باب كيسان، ويقال له سرجه وله عقب«.

لقد أرشدنا الحافظ الدمشقيّ إلى نقطة واضحة لتحديد قصر السرجونيّين، وهي باب كيسان. فالباب المذكور هو أحد أبواب دمشق الرومانيّة، يطلّ على جهة السور الجنوبي الشرقيّ، وقد كان سابقاً في السور الجنوبيّ من المدينة القديمة، وأصبح بعد تعديلات القرن الثاني عشر في الجهة الجنوبيّة الشرقيّة بدون أن يتغيّر مكانه. إن الأساسات وركائز السور المجاورة رومانية بكل تأكيد، وقد جعل التقليد المسيحيّ هذا الباب، منذ القرن الثالث عشر موضع هرب القديس بولس. والباب لا يزال قائماً في أيامنا الحاضرة. وفي 23 أيلول 1924، وضع البطريرك ديمتريوس قاضي، بطريرك الروم الكاثوليك، الحجر الأول لمعبد مكرّس لرسول الأمم بولس. المعبد مبنيّ في داخل الباب نفسه بحيث أصبح باب المدينة القديم باب المعبد.

إن تحديد ابن عساكر للمكان له أهميّة كبرى لأنه أطلعنا على مكان معيّن. ولا ننسى أن بعض آل منصور كانوا على قيد الحياة بعدُ في المدينة في عهد الحافظ الدمشقيّ، بحسب شهادته الشخصيّة؛ ومن المعقول أنهم كانوا يقطنون بيت أجدادهم. وقد أطلعنا ابن عساكر إذاً على أمر يعرفه جيّداً.

إن شهادته هذه لكافية وحدها بحدّ ذاتها. على أنها معزّزة بشهادتين أُخريين. قال ابن شاكر الكتبيّ (+1363):

»إن حَير سرجون داخل باب كيسان، يطلق عليه اسم سرجون بن منصور الروميّ، كاتب معاوية ويزيد وعبد الملك. فكان سرجون في أول الأمر مسيحيّاً ثم انتحل الدين الإسلاميّ على يد معاوية. فحَيْر معناها بستان«. قلت: »هذا اليوم يُعرف ببستان القط«.

وقد أورد سيّد الناس:

»حيَر سرجون داخل باب كيسان، ينسب إلى سرحون بن منصور كاتب معاوية: قلت: »هذا اليوم يُعرف ببستان القط«.

لقد حفظ بستان القطّ اسمه حتى أيامنا الحاضرة ولم يزل بستاناً حتى سنة 1908، لصاحبه عبدو الشيخ عمر. وقد باعه إلى التحالف الإسرائيلي الذي بنى فيه مدرسة كبرى[36]. ويخترق قسم البستان الغربيّ طريق معبدة. بستان القط غير بعيد عن باب كيسان، وقد قامت فوقه الآن بنايات كثيرة حتى انطمست معالمه.

على الرغم من هذه الشهادات الجليّة المتكاملة، اختُلق رأي في منتصف القرن التاسع عشر يدّعي أن بيت القديس يوحنا الدمشقيّ هو بقرب حمّام البكري في حيّ باب توما، واعتبر هذا التحديد تقليداً ثابتاً. فاشترى الآباء اليسوعيّون البيت المزعوم بيت يوحنا الدمشقيّ، سنة 1878، واحتفظوا منه بإيوان شبيه بإيوانات البيوت الدمشقيّة في القرن الثامن عشر. فاكتسب المكان للحال شهادة تثبيت رسميّة يعود عهده إلى أيام الأمويّين وأصبح بيت القديس يوحنا الدمشقيّ الحقيقيّ. وفي 25 كانون الثاني 1895، حصل الآباء على امتياز الاحتفال بعيد القديس، حسب الطقسين البيزنطي واللاتيني.

فبينما كانت بعض مؤلفات الآباء اليسوعيّين التقويّة والشعبيّة تؤيد، على غير حقّ وحجة، صحّة هذا الرأي، لم يخشَ الأب لامنس اليسوعي أن يجاري رأي ابن عساكر.

وساند بعض كتب »الدليل« وروايات لحجّاج عصريّين الرأي السقيم الواهن: أن بيت الدمشقيّ يقع قرب حمّام البكري! لقد جهل جميعهم ابن عساكر ومؤلفاته التي لا تزال مخطوطة،

---

[36] هي مدرسة الأليانس المعروفة اليوم في حي الأمين بدمشق. خ.ذ

ولبث تحديد بيت قدّيسنا في بستان القط وقفاً على بعض العلماء، ولهذا السبب أغفلت أكثر كتب الدليل تحديد بيت القديس يوحنا الدمشقيّ.

وفي سنة 1931، شيّد الآباء اليسوعيّون بالقرب من ديرهم كنيسة فخمة على اسم قدّيس دمشق، يوحنا. إلاّ أن إيمانهم في صحة موقع البيت أخذ يتضاءل ويتلاشى. فأقدموا سنة 1946 على هدم الإيوان وبيت الدمشقيّ المزعوم واستعاضوا عنه ببعض الدكاكين. فبدا عملهم هذا عنوان التجرّد العلميّ فقضوا على أسطورة »التقليد الثابت« التي اختلقها صاحب العقار الماهر ليبيع عقاره بأفضل الأثمان.

وقد تخلّى الآباء اليسوعيّون نهائياً عن ديرهم وكنيستهم الفخمة وباعوهما إلى طائفة الأرمن الكاثوليك في دمشق بمسعى وأريحية جان قدسي الأرمني الكاثوليكيّ. فأصبح الدير مقرّ الكهنة ومدرسة لأبناء هذه الطائفة. والكنيسة كنيستهم الرعويّة.

2- يوحنّا الدمشقيّ، المتعبّد الكبير

1- مواعظه المريميّة

جاء القديس يوحنا الدمشقيّ في غروب عهد آباء الكنيسة الشرقية، وهو أحد أعلامها البارزين. يقع نشاطه الفكري والعلمي في أواخر القرن السابع والنصف الأول من القرن الثامن. وقد لُقّب لفصاحته وغزارة علمه بـ»دفّاق الذهب«، اسم بردى، نهر مدينته، سابقاً. ولم يكن إغريقياً ـ وإن كتبَ باليونانية- بل هو، بحسب المؤرخ فيليب حتي، آرامي اللسان وسليل عائلة دمشقية مسيحية اشتهرت بالفضل والفضيلة. كان جدّه منصور بن سرجون قائماً على إدارة المال في دمشق لدى الفتح العربي، وهو الذي اتفق مع مطران المدينة على تسليمها للعرب، فأبقاه هؤلاء في منصبه. وخلفه فيه ابنه والد القديس يوحنا. أمّا يوحنا نفسه فقد كان في شبابه نديم يزيد بن معاوية، ثم خلف أباه وجدّه في إدارة المالية في الدولة العربية الأموية. وما زال مشرفاً عليها حتى خلافة هشام (724 ـ 743) حين اعتزل الإدارة وانصرف إلى حياة الزهد والتعبّد في دير القديس سابا القريب من القدس الشريف. فقضى فيه ما تبقّى من حياته راهباً وكاهناً مكرساً ذاته لبحوث لاهوتية عميقة. وقد اشتهر بدفاعه العظيم عن إكرام الإيقونات المقدسة في عهد الأباطرة محطمي

الإيقونـات ولا سيّما لاون الإيصـوريّ وقسطنطين الخـامس الملقـب بـالزبلي. عملـه البـارز عـرض شامل للعقيدة المسيحية وموسوعة لاهوتية حقيقية لخّص فيها، بعد جهد شخصـي فريـد، تعـاليم الآبـاء اليونـان كلها. وقد عـرف القديس تومـا الأكـويني هذه المحاولـة الأولـى للطريقـة المدرسـية واستشـهد بها. ومن مؤلفات القديس الدمشقيّ محاورة مع مسلم وحرية الإرادة البشرية، وهـي بمثابـة دفـاع عـن المسيحية. ومنها أيضاً كتاب لإرشـاد المسيحيّين فـي محـاورتهم المسلمين. والـراجح أن يوحنـا نفسـه باحـث فـي كثيـر مـن هـذه المسـائل فـي حضـرة الخليفـة. وقـد تـرك لنـا أيضـاً القـديس مؤلفـات أدبيـة وزهدية. وهو خطيب بليغ تميّزت عظاته بالتقوى والغنى العقائدي. وإن ننس لا ننس عملـه كمنشـد، أي قوانينه وأناشيده الطقسية ولا سيّما تلك اللؤلؤة الشعرية الفريدة قانون عيد الفصح.

وقد أصبحت الترانيم التي نظمها.. أعلـى مـا وصـل إليـه شـعراء الكنيسـة المسيحية مـن روعـة وإبداع. إن القديس يوحنا مفخرة من مفاخر الكنيسة التي ازدهرت في ظل الخلافة وذلـك لمـا اتصـف بـه من النضوج والمقدرة كمنشد ولاهوتي وخطيب وكاتب بارع في فن الجدل«.

إن قسماً لا يُستهان به من المواعظ المنسوبة إلـى الدمشـقيّ يتنـاول مـديح العـذراء مـريم، أربـع منها فقط يعدُّ أصلياً، عظة عن ميلاد العذراء وثلاث عن رقادها وانتقالها إلى السماء.

الفهرس

مؤلفات يوحنا الدمشقي

1- كتاب ينبوع المعرفة.

2- المدخل الأولي للعقائد.

3- كتيب في العقيدة الحقيقية.

4- مبحث في الثالوث.

5- بيان الإيمان القويم وشرحه.

وهنالك أبحاث ورسائل جدلية بين يوحنا الدمشقي والفرق المسيحية الأخرى، ليست بذات أهمية بالنسبة للقارئ العام.

المصادر والمراجع

-أ-

يحيى بن آدم، كتاب الخراج، ليدن

ابن أبي أصيبعة، كتاب عيون الأنباء في طبقات الأطباء، القاهرة.

ابن الأثير، التاريخ الكامل، طبعة تورنبرغ، ليد، 1874.

ابن دريد، كتاب الاشتقاق، طبعة وستنفلد، 1854.

ابن الراهب، التاريخ، طبعة لويس شيخو، بيروت، 1903.

عُمر بن يوسف بن الرسول، طرفة الأصحاب في معرفة الأنساب، دمشق، 1949.

ابن شاكر، عيون التواريخ، 1896.

ابن شداد، كتاب برق الشام في محاسن إقليم الشام، 1895.

ابن عبد ربه، العقد الفريد، طبعة محمّد سيّد العريان، 8 أجزاء، القاهرة، 1940.

ابن العبريّ، تاريخ مختصر الدول، طبعة صالحاني، بيروت، 1890.

التاريخ الكنسي، 3 أجزاء، لوفان، 1872 - 1877.

ابن عساكر، تاريخ دمشق، 5 أجزاء، طبعة عبد القادر بدران بعنوان تهذيب تاريخ دمشق، دمشق، 1329 هـ؛ وجزءان طبعة أحمد عبيد، 1349 - 1351 هـ؛ الأجزاء الأخرى لا تزال مخطوطة ومحفوظة بالمكتبة الظاهرية، دمشق.

ابن قتيبة، عيون الأخبار.

ثاوذورس أبو قرّة (+ حول 825م)، ميمر في إكرام الإيقونات، حققه وقدّم له وفهرسه الأب الدكتور أغناطيوس ديك، سلسلة »التراث العربي المسيحي« 10، ذوق مكايل (لبنان)،

1985، 300 ص.

عبد الله بن محمد بن أبي الدنيا (متوفّى 281 هـ)، من حلم معاوية، مخطوطة المكتبة الظاهرية، رقم 79/186، دمشق.

الأب إسحق أرملة، الملكيّون، بطريركيتهم الأنطاكية ولغتهم الوطنيّة والطقسيّة، بيروت، 1936.

آداب اللغة اليونانية والكتبة السريان، المسرّة (1921)، ص 409.

جلال الدين الأسيوطي، كتاب لبّ الألباب في تحرير الأنساب، طبعة فيث، 1851.

أبو الفرج الأصفهاني، كتاب الأغاني، القاهرة، 20 مجلداً، 1928.

أحمد أمين، فجر الإسلام، الطبعة الخامسة، القاهرة، 1945.

-ب-

الأب قسطنطين باشا المخلصي، سيرة القديس يوحنا الدمشقي الأصلية، تصنيف الراهب مخائيل السمعاني الأنطاكي، المسرّة، 3 (1912)، ص 281 - 288، 334 - 343 ، 375 - 385.

أبو البقاء عبد الله بن محمد البدري، نزهة الأنام في محاسن الشام، القاهرة، 1341 هـ.

الأب باسيليوس بريدي البولسي، تقريظ القديس يوحنا الدمشقيّ، كاتدرائية دمشق، 1950.

فؤاد إفرام البستاني، دور النصارى في إقرار الخلافة الأموية، المشرق، 1938، ص 71 - 92.

البلاذري، أنساب الأشراف، الجزء 4، طبعة شلوسّنجر، القدس، 1938، الجزء 5، طبعة غواتن، القدس، 1936.

فتوح البلدان، طبعة دي غوجي، ليد، 1866.

ميشل بلدي، هو رمز النبوغ في كل عصر. (قصيدة)، حريصا، 1950.

-ج-

أبو عثمان الجاحظ، كتاب الحيوان، 7 أجزاء، مصر، 1938، البيان والتبيين، مصر، 1932.

عمرو بن بحر الجاحظ (متوفّى 255 هـ)، رسالة في بني أمية، مخطوطة المكتبة الظاهرية، رقم 3731/36، دمشق.

الجهشياري، كتاب الوزراء والكتّاب، القاهرة، 1938، تحقيق مصطفى السقّا وإبراهيم الأبياري وعبد الحفيظ شلبي.

-ح-

فيليب حتّي، تاريخ العرب، بيروت.

الدكتور جورج حدّاد، فتح العرب للشام، بيروت، 1931.

مكانة يوحنا الدمشقي في الأدب اليوناني السوري، حريصا، 1950.

الأب خريزوستوم حلاق، قب، الدمشقي اللاهوتي، حريصا، 1950.

-د-

الدكتور سامي الدهان، دمشق في عهد الأمويين، حريصا، 1950.

-ز-

حبيب الزيّات، الصليب في الإسلام، حريصا، 1935.

جرجي زيدان، تاريخ التمدّن الإسلامي، المجلد 4، القاهرة، 1927.

تاريخ الأدب العربي، القاهرة، 1936.

-س-

أبو القاسم عُبيد الله بن محمد بن أحمد السقطي، فضائل معاوية، مخطوطة المكتبة الظاهرية، رقم 4493، دمشق.

ماري بن سليمان، أخبار فطاركة المشرق، طبعة روما، 1899.

عبد الكريم السمعاني، كتاب الأنساب، طبعة مرغوليوت، ليد، 1912.

-ش-

ابن قاضي شهبا، تاريخ بناء دمشق، مخطوط المكتبة الظاهرية، رقم 4624، دمشق.

الأب لويس شيخو اليسوعي، النصرانية وآدابها بين عرب الجاهلية، بيروت، 1933.

المفاخر السنّية في آثار دمشق المسيحية، بيروت، 1924.

علماء النصرانية في الإسلام، تحقيق الأب كميل حشيمه اليسوعي، سلسلة »التراث العربي المسيحي« 5، ذوق مكايل (لبنان)، 1983.

-ص-

البطريرك مكسيموس الرابع الصائغ، منشور بطريركي في الذكرى المئوية الثانية عشرة لوفاة القديس يوحنا الدمشقي، حريصا، 1950.

أ. صالحاني، شعر الأخطل (أو الديوان)، بيروت، 1891.

أبو بكر الصولي، آذاب الكتّاب، القاهرة، 1341 هـ.

-ط-

الطبري، تاريخ الرسل والملوك، ليد، 1879 - 1901.

فيليب دي طرّازي، عصر السريان الذهبيّ، بيروت، 1946.

محمّد بن علي بن طولون، القلائد الجوهريّة في تاريخ الصالحيّة، طبعة محمد دهمان، دمشق، 1945.

-ع-

ج. م. عبد الجليل، مختصر تاريخ الأدب العربي، باريس، 1947.

يوسف بن عبد الهادي، ثمار المقاصد في ذكر المساجد، طبعة أسعد طلس، بيروت، 1943.

المطران ميخائيل عساف، كتاب السنكسار، الطبعة الثالثة، الجزء الرابع، المكتبة البولسيّة، جونيه (لبنان)، ص 331 - 337.

العلموي، مختصر تنبيه الطالب، طبعة صلاح الدين المنجد، دمشق، 1945.

محمد كرد علي، خُطط الشام، 6 مجلدات، دمشق.

دمشق مدينة الشعر والسحر، القاهرة.

-ف-

الأب يوحنا الفاخوري، تاريخ الأدب العربي، حريصا، 1950.

أعياد الذكرى المئوية الثانية عشرة لوفاة القديس يوحنّا الدمشقي بدمشق، حريصا، 1950.

الأب فروماج اليسوعي، مروج الأخبار في تراجم الأبرار، بيروت، 1880.

-ك-

محمد بن كينان، الحُلل السندسية في تاريخ الصالحية، طبعة الشيخ محمد دهمان، دمشق.

-ل-

الأب أرمان لَيْلي، تأثير الدمشقي في الليتورجيا والموسيقى البيزنطية، حريصا، 1950.

-م-

المسعودي، كتاب التنبيه والأشراف، باريس، 1860.

مروج الذهب، باريس، 1869.

مكسيموس مظلوم، الكنز الثمين، الجزء 1، بيروت، 1866، ص 461 ـ 466.

الأب لوسيان معلوف المخلصي، القديس يوحنا الدمشقي وتعليمه الخاص في مريم البتول، حريصا، 1950.

درويش المقدادي، الزراعة والجباية في عهد بني أميّة، حريصا، 1950.

المقريزي، الخطط المقريزية، طبعة القاهرة، 1324 هـ.

ساويروس بن المقفّع (القرن 10)، تاريخ أعلام الكنيسة الذين جلسوا على كرسي بطيركية الاسكندرية.

صلاح الدين المنجد، دمشق القديمة، أسوارها أبراجها وأبوابها، دمشق، 1945.

خطط الشام، في مجلة المشرق (1947 ـ 1949).

-ن-

الأب يوسف نصر الله، أسرة يوحنا الدمشقي ومكانتها في الدولة الأموية، حريصا، 1950.

بيت يوحنا الدمشقي، المرجع نفسه.

سنة وفاة القديس يوحنا الدمشقي، المرجع نفسه.

قبائل العرب المسيحية في سوريا قبل الإسلام، المسرّة 35 (1949)، عدد كانون الأول، ص 591 ـ 602.

عبد القادر بن محمد النعيمي، الدارس في تاريخ المدارس، المجلد 1، طبعة جعفر الحسني، دمشق، 1958.

-هـ-

الهمذاني، كتاب صفات جزيرة العرب، طبعة مولر.

الأب لويس هوكه اليسوعي، ترجمة القديس يوحنا الدمشقي، بيروت، 1895.

-و-

أبو عبد الله محمد الواقدي، فتوح الشام، القاهرة، 1861.

-لا-

الأب هنري لامنس اليسوعي، أسرة القديس يوحنا الدمشقي، المشرق (1931)، بيروت.

-ي-

ياقوت الحموي، معجم البلدان، طبعة وستنفلد.

صالح بن يحيى، تاريخ بيروت، طبعة الأب شيخو.

اليعقوبي، التاريخ، طبعة هوتسما، ليد، 1883.

كتاب البلدان، طبعة غاستون وايت، القاهرة، 1937.

الذكرى المئوية الثانية عشرة لوفاة القديس يوحنا الدمشقي، المطبعة البولسيّة، حريصا، 1950.

التذكار المئوي الثاني عشر لوفاة القديس يوحنا الدمشقي (749 - 1949)، المسرّة، 35 (1949)، عدد كانون الأول.

يوحنا الدمشقي، المئة مقالة في الإيمان الأرثوذكسي، عرّبه عن النص اليوناني الأرشمندريت أدريانوس شكور، ق. ب.، سلسلة »الفكر المسيحي بين الأمس واليوم«، 5، منشورات المكتبة البولسيّة، جونيه (لبنان)، 1984، 280 ص.